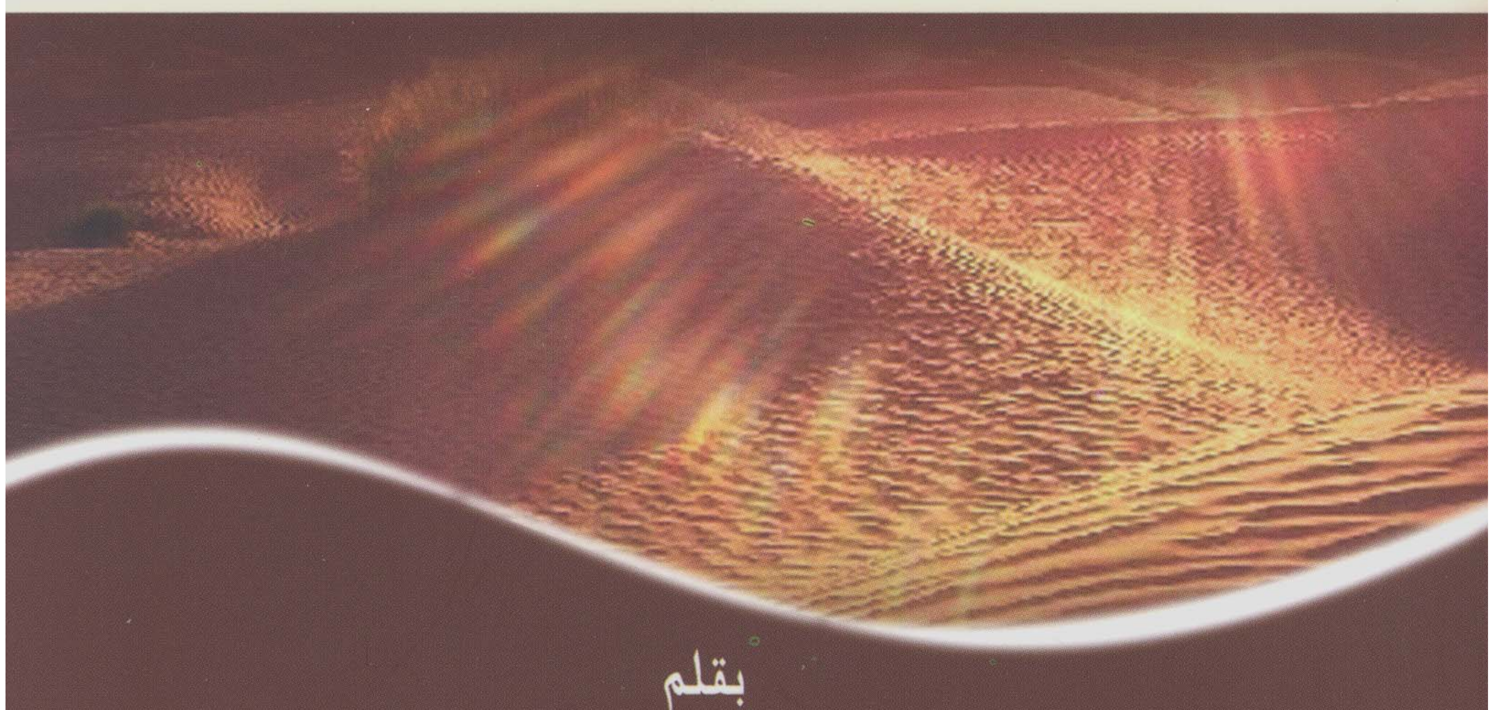
نجد قبيل ظهور

الشيخ
محمد بن عبد الوهاب

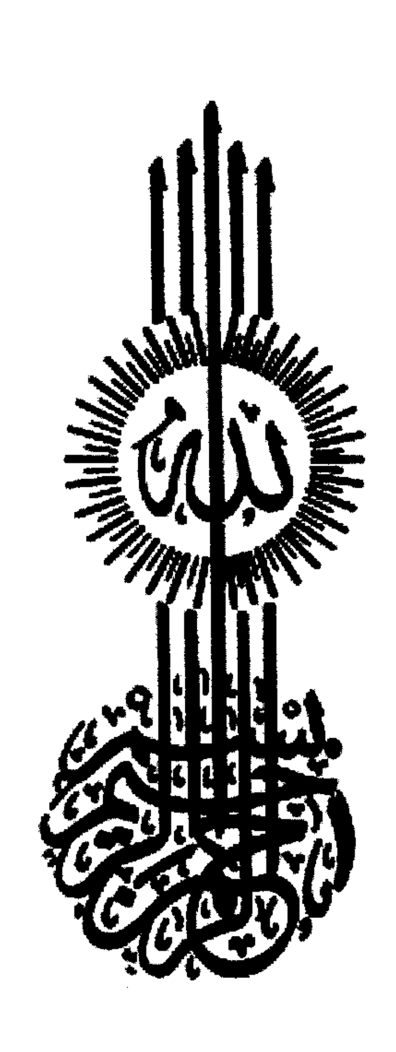


بقلم
الدكتور عبد الله الصالح العثيمين





نجد قبيل ظهور
الشيخ
محمد بن عبد الوهاب





نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب

بقلم

الدكتور عبدالله الصالح العثيمين

ربيع الآخر ١٤٣١هـ (٢٠١٠م)



نـاشـــرون

ح عبدالله الصالح العثيمين ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمن ، عبدالله الصالح
نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب / عبدالله الصالح العثيمين -الرياض ١٤٣١هـ
ردمك ٣-٠٧٠-٥- ٠٠- ٦٠ -٩٧٨
١- نجد - تاريخ - العصر الحديث ٢- الدعوة السلفية ٣- محمد بن عبدالوهاب بن سليمان أ العنوان
ديوي ٩٥٣،١١ رقم الإيداع ٣٦٩٧/ ١٤٣١

ردمك ٣-٠٧٠-٥-٠٠-٦٠-٩٧٨ الإيداع ٣٦٩٧ / ١٤٣١

الطبعة الأولي تاريخ : ١٤٣١هـ ٢٠١٠م

مكتبة الرشد – ناشرون

المملكة العربية السعودية – الرياض

الإدارة : مركز البستان – طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٤٨١٨

ص ٠ ب ١٧٥٢٢الرياض ١١٤٩٤ فاكس ٤٦٠٢٤٩٧

Email: info@rushd.com.sa
Website : www.rushd.com.sa

فروع المكتبة داخل المملكة

الريـاض :المركز الرئيسي : الدائري الغربي – بين مخرجي ٢٧ و٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢
الريـاض : فـرع طريـق عثمـان بـن عفـان هـاتف ٢٠٥١٥٠٠
الريـاض : فـرع الـدائري الـشرقي هـاتف ٤٩٧١١٩٩ فـاكس ٤٩٦١٥٩٩
فـرع مكـة المكرمـة : شـارع الطـائف هـاتف ٥٥٨٥٤٠١ فـاكس ٥٥٨٣٥٠٦
فـرع المدينـة المنـورة : شـارع أبـي ذر الغفـاري هـاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فـاكس ٨٣٨٣٤٢٧
فـرع جـدة : مقابـل ميـدان الطـائرة هـاتف ٦٧٧٦٣٣١ فـاكس ٦٧٧٦٣٥٤
فـرع القـصيم : بريـده – طريـق المدينـة هـاتف ٣٢٤٢٢١٤ فـاكس ٣٢٤١٣٥٨
فـرع أبهـا : شـارع الملـك فيـصل هـاتف ٢٣١٧٣٠٧ فـاكس ٢٢٤٢٤٠٢
فـرع الـدمام : شـارع الخـزان هـاتف ٨١٥٠٥٥٦ فـاكس ٨٤١٨٤٧٣
فـرع حائـل : هـاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فـاكس ٥٦٦٢٢٤٦
فـرع الإحـساء : هـاتف ٥٨١٣٠٢٨ فـاكس ٥٨١٣١١٥
فـرع : تبـوك هـاتف ٤٢٤١٦٤٠ فـاكس ٤٢٣٨٩٢٧
فـرع القاهرة : شارع إبراهيم أبو النجا – مدينة نصر : هاتف ٢٢٧٢٨٩١١ – فاكس ٢٢٧١٢٦٢٥

مكاتبنا بالخارج

القاهرة : مدينة نصر : هاتف ٢٧٤٤٦٠٥ موبايل ٠١١٦٢٨٦١٧٠

موبايل ٠١٠١٦٢٢٦٥٣فاكس ٢٢٧١٣٦٢٥

بيروت : بئر حسن موبايل ٠٣٥٥٤٣٥٣ تلفاكس ٠٥/٤٦٢٨٩٥

مقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه الغُرِّ الميامين. وبعد:

للجزيرة العربية؛ قديماً وحديثاً، مكانتها الرفيعة لدى العرب بخاصة، ولدى المسلمين بعامة. بل ولها أهميتها الحيوية لدى العالم كله. فهي مهد العرب، وموطن حضارتهم الأولى، وفي رحاب مكة بيت الله المحرَّم: إليه يحجون، وله يعظِّمون. ولما شع نور الإسلام في تلك الرحاب المقدَّسة ببعث الله - سبحانه - خير خلقه محمداً، صلَّى الله عليه وسلَّم؛ نبيًّا مختاراً من أمة العرب؛ إليهم وإلى الناس أجمعين؛ مبشِّراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، ازدادت مكانة الجزيرة العربية رفعة وأهمِّية، كما ازدادت منزلة بيت الله المحرَّم عظمة وجلالاً. ذلك أن هذه الجزيرة العربية أصبحت مهبط خاتم الرسالات، ومنطلق أعظم دولة عرفها تاريخ الإنسانية؛ شرعاً ونظاماً

وعدلاً، وأن حج ذلك البيت المحرَّم أصبح أحد أركان الإسلام .. الدين القيِّم .. لمن استطاع إليه سبيلا، وقبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في جميع صلواتهم.

وكما كانت الجزيرة العربية قبل الإسلام حلقة وصل تجاري مهمَّة بين قارات العالم القديم كان لأهلها جهود قويَّة الأثر في تقوية تلك الحلقة. ولقد ظلَّت لها أهمِّيتها الكبيرة. وكانت هذه الأهمِّية أحد أسباب أغرت بعض الدول الأوربية ذات الأطماع الاستعمارية بأن تتنافس على مدِّ نفوذ لها على أجزاء منها؛ وبخاصة في سواحلها، لتؤمِّن طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في شرق آسيا وجنوبها. وقد بدأ ذلك التنافس الاستعماري في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ثم ازدادت أهمِّية الجزيرة العربية - بطبيعة الحال - نتيجة تدفُّق النفط من أعماق أراضيها، واكتشاف أنها ذات احتياطي هائل منه.

ومن المعروف أن بعض الأقطار أوفر حظاً من البعض الآخر من حيث عناية المؤرخين نتيجة لظروف وأسباب عديدة. وهذا ينطبق تمام الانطباق على مناطق الجزيرة العربية. فبعض مناطقها؛ مثل اليمن، التي تعاقب فيها - عبر

القرون - قيام دول وزوالها، كما ظهر فيها مؤرخون دوَّنوا ما دوَّنوا عن تلك الدول؛ بداية ومسيرة وزوالا. لذلك فأكثر جوانب تاريخها ميسَّرة للباحثين. ومن مناطقها ما لها مكانة دينية متمثِّلة في الحجاز المشتملة على مكة والمدينة. وهذا ما جعلها ملتقى المسلمين من كل مكان، ومهوى أفئدة من طابت لهم المجاورة في رحابها من العلماء. وكان من هؤلاء وغيرهم من كتبوا عن تاريخ تلك المنطقة كتابات جيدة وافية إلى درجة كبيرة.

ومن مناطق الجزيرة العربية ما لها أهمِّية اقتصادية وسياسية خاصة؛ مثل سواحلها؛ شرقية أو غربية. وكان مما دلَّ على تلك الأهمِّية ما سبقت الإشارة إليه من حدوث تنافس بين دول استعمارية أوربية حول تلك السواحل؛ كلُّ دولة استعمارية تريد مدَّ نفوذ على أجزاء منها كما سبق أن ذُكِر. وكان لذلك التنافس أثره الواضح في تدوين ما جرى؛ وهو تدوين فيه ما يتَّفق مع الحقائق، وفيه ما لا يتَّفق معها؛ بل اصطبغ بهوى الجهة التي يتبعها المدوِّن وما يخدم أهدافها.

ومنطقة نجد، بأقاليمها المتعدِّدة، تمثِّل وسط الجزيرة

العربية. وقد مرَّت عليها قرون دون أن تقوم فيها دولة تضمُّ تلك الأقاليم بحاضرتها وباديتها. وهي ليست كالحجاز لها تلك المكانة الدينية، ولا كالسواحل ذات الأهمِّية الاقتصادية السياسية الخاصة. لذلك لم يكن غريباً أن باتت المعلومات شحيحة عن تاريخها عبر القرون؛ وبخاصة بعد زوال الدولة الأُخَيْضرية العَلَوية التي قامت في إقليم اليمامة عند منتصف القرن الثالث الهجري، واستمرت قرابة قرنين من الزمن. وكان القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ذا توافق مع أحداث في الجزيرة العربية جديرة بالتأمُّل. في ذلك القرن بدأ التنافس الاستعماري الأوربي لمدِّ نفوذه على سواحلها بشكل خاص - كما سبق أن ذُكِر. وفيه دخلت الحجاز، ثم اليمن، ثم شرقي الجزيرة العربية تحت الحكم العثماني، الذي كان حينذاك في أوج حيويته وقوَّته. وكان لدخول الحجاز بالذات تحت ذلك الحكم أثره على مجريات الأمور في منطقة نجد، التي كانت حتى ذلك الوقت خارج دائرة الضوء. وفي ذلك القرن بدأت تلوح في الأفق معلومات أوفى عن نجد. وكان من أبرز وجوهها ظهور علماء شريعة في بعض بلدانها. وفي مقدَّمة أولئك العلماء أحمد بن عَطْوة المتوفى عام ٩٤٨هـ/

١٥٤١م[١]. وما إن حلَّ القرن الذي تلاه حتى بدأت تظهر تقييدات، أو نُبَذ، كتبها عدد قليل جداً من أولئك العلماء؛ مشيرين إلى أحداث جرت فيها. ومع تنامي أعداد العلماء بمرور السنين ازدادت أعداد تلك التقييدات، أو النُبَذ، المُؤرِّخة للأحداث. وإذا أضيفت هذه إلى التواريخ المهتمَّة بالحجاز وإلى ما أُثِر من مصادر أخرى للمعلومات؛ بينها ما دوَّنته الوثائق النجدية المحلِّية والأشعار التي نظمها نجديون باللغة الدارجة في تلك الفترة، انفتحت أمام الباحث أبواب لم تكن مفتوحة من قبل.

ومن المعروف أن ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الهادفة إلى تحرير عقل المسلم من الخرافات وشوائب الشرك كان المنعطف التاريخي الكبير في تاريخ نجد؛ بل وفي تاريخ المناطق التي أصبحت الآن تُسمَّى بعد توحيدها المملكة العربية السعودية. ومن المعروف، أيضاً، أن تلك الدعوة انتصرت بتبنِّي أسرة آل سعود لها، فتحقَّق لها من الانتشار ما تحقَّق، وأن أولئك الذين ناصروها قد

---

(١) ابن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف الثانية، ١٣٩١هـ، ج ٢، ص ١٩٤.

انتصروا بتبنيِّهم لها، فتحقَّق لهم من النفوذ والتمكين ما تحقَّق. ولكون ظهور تلك الدعوة، وحدوث تلك المناصرة، المنعطف التاريخي الكبير في تاريخ منطقة نجد وبقية المناطق المكوِّنة الآن للوطن الموحَّد بالاسم الذي أصبح عليه فإنه لم يكن غريباً أن يعمد المؤرخ النجدي، عثمان بن بشر، إلى بدء تسجيل تاريخ الحوادث في كتابه **عنوان المجد في تاريخ نجد** بالسنة التي تمَّت فيها المبايعة بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب على نشر الدعوة التي نادى بها ذلك الشيخ والدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة، وتسجيل حوادث السنين التي سبقت تلك المبايعة متناثرة في ثنايا الكلام عن الأحداث في السنوات التالية لها. يقول في مقدَّمة تاريخه - بعد إشارته إلى ما قام به علماء نجد قبل ظهور دعوة الشيخ محمد من "ترسيمات قصَّروا فيها عن المطلوب على حدِّ قوله، ولكن لا تخلو - من فائدة - فلا رأيت أن أتركها ولا أبدأ بها هذا الكتاب لأن السنين التي بعدها (أي بعد سنة المبايعة المذكورة) هي التي لأجلها وُضِع الكتاب، ووقع عليها الخطاب، وتطاولت لها الأعناق، وكثر البحث عنها والاشتياق.

فهي أحق بالتقديم لفضلها وفضل أهلها، ولكونها من السنين المباركة على أهل نجد بأمان السبل واتِّساع في معاشهم وأسفارهم وحجهم وإذلالهم لعدوهم. فأردت أن أدخل السنين السابقة بين سني هذا الكتاب منتشرة فيه متتابعة كل سنة سابقة تحت كل سنة لاحقة، والعلامة عليها قولي: سابقة ليحوي الكتاب فائدة المتقدُّم والمتأخر"[١].

ولقد شاء الله وقدَّر أن يكون موضوع دراسة كاتب هذه السطور للحصول على درجة الدكتوراه مركَّزاً على حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بكل تفصيلاتها، وما ألَّفه من كتب ورسائل، وما طرحه من آراء حول التوحيد بخاصة وبقية أصول الدين وفروعه بعامة مع إيضاح مواقفه هو وأنصاره من جهة، ومواقف المعارضين له ولهم من جهة أخرى تجاه قضايا عقدية مُهِمَّة. وكانت تلك الدراسة قد تمَّت بإشراف البروفيسور مونتجمري وات والسيد جي وولش في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة ادنبرا الاسكتلندية، ونُوقِشت، فأُقِرَّت، عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

ولأن للظروف التي يعيش فيها المرء ويعمل أثرها في

(١) المصدر نفسه، ص ص ١٦ - ١٧.

تكوين آرائه ومواقفه كان لابد من إعطاء خلفية تاريخية - وإن بصورة موجزة- عن الأوضاع السائدة في منطقة نجد.. المنطقة التي ظهر فيها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقام بما قام به؛ وذلك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية. وقد اعتُمد في كتابة تلك الخلفية التاريخية على ما توافر من مصادر متنوِّعة.

وكان صدور مجلة **الدارة**، عام **١٣٩٥**هـ/ **١٩٧٥**م، وما نُشِر فيها من دراسات، مما شجَّعني على توسيع ما سبق أن كتبته باختصار في أطروحة الدكتوراه عن أوضاع نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وتعميقها، ومن ثَمَّ نشرها في هذه المجلة على أربع حلقات بعنوان: "نجد منذ القرن العاشر الهجري حتى ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب"؛ أولاها في ذي الحجة عام **١٣٩٥**هـ، وأخراها في شوال عام **١٣٩٨**هـ.

وبدا لي - بعد مرور ثلاثة عقود على نشرها متفرِّقة في مجلة علمية - أن إخراجها مجموعة فيه ما فيه من فائدة. ومن المعلوم أن عدة دراسات أكاديمية قد عملت بعد ذلك؛ منها ما تناول جانباً من الجوانب التي تناولتها، ففصلت

القول فيه، وأضافت ما أضافت إليه. ومن بين هذه الدراسات دراسة الدكتور عويضة الجهني، ودراسة الدكتورة مي العيسى، ودراسة الدكتور عبدالرحمن العريني، ودراسة الدكتور أحمد البسام. ومن هذه الدراسات ما سعدت بالإشراف عليها، ومنها ما سعدت بالمشاركة في تحكيمها ومناقشتها. وكل هذه الدراسات قيِّمة مفيدة بالتأكيد.

على أن من أبرز مبرِّرات ما سبق أن نُشِر في **الدارة** من دراسة عن أوضاع نجد قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو أنه كان طليعة دراسات أكاديمية عن تلك الأوضاع، وأن ما عُمِل من دراسات قيِّمة موسَّعة بعد ذلك ليس فيها ما يناقض الخطوط العامة لتلك الدراسة الرائدة، والنتائج التي توصلت إليها. ومن هنا استحسن نشرها بوضعها، الذي نشرت به سابقاً، باستثناء إضافة التاريخ الميلادي إلى التاريخ الهجري وتصحيح العنوان لغوياً. والأمل أن يجد فيها القارئ المهتم بمعرفة أوضاع تلك الفترة التاريخية ما يفيد.

والله وليّ التوفيق.

عبد الله الصالح العثيمين

أولاً - علاقة نجد بالقوى المحيطة بها

من المعروف لدى كثير من دارسي تاريخ هذه البلاد أنه بعد أن ضعفت الدولة الأُخَيْضرية، التي أسسها محمد بن يوسف العلوي في منطقة اليمامة، أصبحت نجد أكثر تفككاً من ذي قبل، كما أصبحت هدفاً لغزوات القوى المحيطة بها وفلكا لامتداد نفوذها؛ سواء تلك القوى المتمثِّلة في الدول التي قامت في شرقي الجزيرة العربية (الأحساء والقطيف) أو تلك القوة المتمثِّلة في أشراف مكة.

ويهمُّنا في هذه الصفحات من الدول التي قامت في منطقة شرقي الجزيرة العربية دولة آل أجود الجبريين، التي بلغت درجة كبيرة من القوة، والتي بدأت غزواتها لنجد من منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حيث يقول المؤرخ عبد الله بن محمد آل بسام:

"وفي هذه السنة (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) غزا زامل بن جبر العقيلي العامري، ملك الأحساء والقطيف، ومعه جنود عظيمة من البادية والحاضرة، وقصد الخرج وصبَّح الدواسر

وعايذ على الخرج، وحصل بينهم قتال شديد قُتِل فيه عدّة رجال من الفريقين. ثم صارت الهزيمة على الدواسر وعايذ، واستولى زامل على محلّتهم وأغنامهم وبعض إبلهم، وأقام في الخرج نحو عشرين يوماً، ثم قفل عائداً إلى وطنه(١)".

واستمرت غزوات آل أجود الجبريين لنجد خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وأوائل القرن الذي تلاه. ويلاحظ أن أكثر تلك الغزوات كان موجهاً ضد قبيلة الدواسر. على أن قبائل أخرى؛ كالفضول وآل عايذ وآل مُغِيرة وسُبَيْع تعرَّضت لهجماتهم أيضا. ولكن بدرجة أقلّ من تعرُّض القبيلة السابقة. وكان من بين أسباب تلك الغزوات اعتداء القبائل المذكورة على بواد تابعة لحاكم الأحساء

(١) **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، صورة نقلها من المخطوطة الأصلية نور الدين شريب، ورقه ٨ ب. وكلام ابن بسام صريح في أن زامل بن جبر كان حاكم الأحساء والقطيف حينذاك، ولكن السخاوي في **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، (القاهرة، ١٣٩٣هـ، ج١، ص ١٩٠) يقول: إن سيف بن زامل هو الذي انتزع حكم تلك المنطقة من بني جروان. وقد يكون سيف هو الذي قام بتلك الغزوة.

والقطيف أو قوافل تجارية قادمة من تلك المنطقة إلى نجد، وكثيراً ما تكلَّلت تلك الغزوات بالنجاح[١].

وكان لآل أجود الجبريين نفوذ في نجد يوضِّحه أن بعض المصادر وصفت أجود بن زامل، أحد حكامهم المشهورين، بأنه "رئيس أهل نجد ورأسها..."[٢] وتدلُّ عليه، أيضاً، قصيدة جُعَيْثن اليزيدي الحنفي، التي يمدح فيها مقرن بن زامل بن أجود بقوله:

حمى بالقنا هجراً إلى ضاحيَ اللِّوى
إلى العارض المنقاد نابى الفرايد
ونجد رعى رِبْعيّ زاهي فلاتها
على الرغم من سادات لامٍ وخالد
وسادات حَجْرٍ من يزيدٍ ومزيد
قد اقتادهم قود الفلا بالقلايد[٣]

---

(١) عبد الله آل بسام، مصدر سبق ذكره، الورقات ٩، ١٠، ١١، ١٥، و١٦.

(٢) علي السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، القاهرة، ١٣٢٦هـ، ج٢، ص ٢٨٨.

(٣) حمد بن لعبون، تاريخ حمد بن لعبون، مكة، ١٣٥٧هـ، ص ٣٢، قارن الشيخ حمد الجاسر، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، =

على أن الخلافات الداخلية حول الحكم أنهكت دولة آل أجود الجبريين، وزاد من مصيبتها تدخلُّ البرتغاليين في المناطق التابعة لها، وهو التدخُّل الذي ذهب ضحيته مقرن ابن زامل بن أجود نفسه عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م[١]. ثم انتهت هذه الدولة على يد راشد ابن مغامس عام ٩٣٢هـ ١٥٢٥م[٢].

= الرياض، ١٣٨٦هـ، ص ٨٣.
ومن المعروف أن هجراً هي منطقة الأحساء المشهورة بكثرة النخيل حتى أصبحت مثلاً، فيقال: "كجالب التمر إلى هجر". والضاحي هو الرمل. والعارض: إقليم من أقاليم نجد المعروفة. المنقاد: الممتد. نابى الفرايد: مرتفع الجبال. رِبْعي: أول العشب وأحسنه. الفلاة: البَرِّيَّة. ولام وخالد قبيلتان كبيرتان معروفتان. وحَجْر: قاعدة اليمامة؛ وهي ما أصبحت تسمَّى الرياض. ويزيد ومزيد فرعان من بني حنيفة. والفلا: الخيل الصغيرة السن.

(١) محمد بن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ط٢، القاهرة، ١٣٧٠هـ، ج ٥، ص ٤٣١. ذكر الدكتور جورج رنتز في مقاله "جزيرة العرب" في الطبعة الجديدة من **دائرة المعارف الإسلامية** باللغة الانجليزية أن مقرناً كان عم أجود وخليفته. والواقع أن مقرناً كان حفيد أجود لا عمَّه، كما أنه لم يخلفه على الحكم وإنما خلف أجود ابنه محمد.

(٢) محمد آل عبد القادر، **تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد**، الرياض، ١٣٧٩هـ، ج ١، ص ١٢١.

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يهدِّدون جزيرة العرب من عدَّة جهات بحرية كان العثمانيون يحرزون انتصارات على خصومهم المماليك. وحين استولى السلطان سليم على مصر، سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م انضمَّت الحجاز رسمياً تحت النفوذ العثماني، واتَّجهت أنظار العثمانيين إلى بقية جزيرة العرب رغبة في التوسُّع ودفعاً لخطر البرتغاليين عن منطقة تضمُّ مقدَّسات إسلامية. وقد نجح العثمانيون في التوغُّل في اليمن، وصارعوا البرتغاليين على شواطىء البحر الأحمر، كما صارعوهم في منطقة الخليج، ثم استولوا على الأحساء قرابة سنة ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م[١]. وباتت نجد محاطة من جميع جهاتها تقريبا بمناطق خاضعة للعثمانيين الأمر الذي يبدو أن أشراف مكة حاولوا استغلاله لمصلحتهم. ومن حسن حظ هؤلاء الأشراف أنه في تلك الفترة بالذات ظهرت بينهم شخصيات قوية كأبي نُميّ الثاني. فبدأت غزواتهم لنجد حين قام حسن بن أبي نُميّ بغزوة اخترق بها نجداً حتى وصل إلى العارض، وهاجم بلدة مِعْكال، التي أصبحت جزءاً من مدينة الرياض الحالية؛

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، الصفحة نفسها.

وذلك سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م[(١)] واستمرت غزوات الأشراف لنجد بعد ذلك، وإن كانت متباعدة في أوقاتها[(٢)].

والمتأمل يرى أن أكثر غزوات الأشراف تلك كانت موجَّهة ضد سكان المدن والقرى بعكس هجمات آل أجود الجبريين، التي كانت موجَّهة - عموماً - ضد رجال قبائل البادية. وبما أن الحضر، عادة، لا يعتدون على قوافل الحجاج فإنه من المستبعد أن تكون حماية طرق تلك القوافل سبباً لغزوات الأشراف لنجد. والمرجَّح أن تلك الغزوات كانت تهدف إلى الحصول على غنائم وفرض سلطة عليا على البلاد تُفرَض من خلالها ضرائب سنوية على السكان. والمتتبع لإجراءات الأشراف يرى ذلك بوضوح. فقد كان على بعض البلدان النجدية، في وقت من الأوقات، أن تدفع مبلغاً من المال كلَّ سنة إلى خزينة

---

(١) عبد الملك العصامي، **سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والثوالي**، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ج ٣، ص ٣٦٨. قارن ذلك بما ذكره ابن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف السعودية الثانية سنة ١٣٩١هـ، ج ٢- سوابق، ص ١٩٥.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ص ص ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣ و٢٣٨.

مكة[١]، كما كان فشل بعض هذه البلدان في دفع المبلغ المفروض عليها، أو محاولتها الثورة، سبباً في معاقبتها بشدَّة[٢].

وفي غضون ذلك كانت قبيلة بني خالد آخذة طريقها إلى الزعامة حتى تمكَّنت من فرض قوَّتها في شرقي جزيرة العرب خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، كما كان نفوذ العثمانيين آخذاً في التقلُّص نتيجة المتاعب الداخلية والخارجية، التي كان العثمانيون يواجهونها. وكانوا قد اضطروا إلى ترك اليمن بسبب الثورة التي قامت ضدهم هناك. وقد استغلَّ بنو

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(٢) إبراهيم بن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد**، نشر الشيخ حمد الجاسر، دار اليمامة في الرياض، ١٣٨٦هـ، ص ٧٠. وانظر أيضا Gerald de Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, P.158 . تولَّى حسن بن أبي نُميَّ حكم مكة بعد تنازل أبيه عن حكمها عام ٩٧٤هـ، وتوفي - أثناء غزوة لنجد - في مكان يقال له القاعية بعالية نجد؛ وذلك في سنة ١٠١٠هـ. أحمد السباعي، **تاريخ مكة**، ط ٢، دار قريش بمكة، ١٣٨٧هـ، ج ٢، ص ص ٩ و ١٥.

خالد هذه الفرصة، فهاجموا، بقيادة برَّاك بن غُريْر، قوات العثمانيين في الأحساء، وطردوهم من تلك المنطقة سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م[١].

وما إن تمكَّن بنو خالد من السيطرة على مقاليد الأمور في الأحساء والقطيف حتى اتَّجهت أنظارهم إلى مدِّ نفوذهم في بعض مناطق نجد، فغزا برَّاك بن غُرير آل نَبْهان قرب سدوس عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م. وبعد سبع سنوات هاجم آل عسَّاف قرب الدِّرْعية[٢]. ومضى بنو خالد يغزون نجداً

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١١. كان استيلاء برَّاك على الأحساء عام ١٠٧٧هـ، لكن سيطرته على القطيف كانت، فيما يبدو، عام ١٠٨٠هـ. وهذا ما يفسِّر تحديد أحد شعراء هذه البلدة ذلك بقوله:

رأيت البدو آل حُمَيْد لما
تولَّوا أحدثوا في الخط ظلما
أتى تاريخهم لما تولَّوا
كفانا الله شرَّهم "طغى الما"

والخط هو الإقليم الذي فيه القطيف. و "طغى الما" بحساب الجمَّل ١٠٨٠ تقريبا. وبذلك تكون سيطرة زعماء بني خالد على المنطقة بكاملها هو هذا التاريخ.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٨، ٢٤١، ٢٣٣.

ويحاولون مدَّ نفوذهم على أجزاء منها[١]؛ مزاحمين بذلك نفوذ أشراف مكة. وكانت علاقة النجديين بحكام الأحساء ذات أهمّية خاصة لأن منطقة الأحساء كانت متنفَّساً اقتصادياً لنجد، حيث كان يذهب إليها النجديون بحثاً عن الرزق؛ وبخاصة في أوقات الشدَّة والقحط[٢]، كما كانوا يتردَّدون إليها ليستوردوا منها، أو عن طريق موانئها، ما يحتاجون إليه.

وعلى أيِّ حال، فحينما يُتكلَّم عن نفوذ تلك القوى المحيطة بنجد في هذه المنطقة فذلك لا يُقصَد به النفوذ القويُّ الذي يفرض وجوده على سير الحوادث بدرجة كبيرة. ذلك أنه لا نفوذ آل أجود الجبريين في بعض جهات نجد، ولا نفوذ أشراف مكة، أو نفوذ بني خالد، في بعض جهاتها الأخرى، أحدث فيها نوعاً من الاستقرار السياسي. فالحروب بين البلدان النجدية استمرت قائمة، والصراع بين قبائلها المختلفة لم يتوقَّف أو تخفَّ حدَّته.

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٢١٣ و٢٣٥.

Abu Hakima, History of Eastern Arabia (1750-1800), Beirut, 1963, P.40

ثانياً - الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

كانت منطقة نجد في تلك الفترة من أقلِّ مناطق جزيرة العرب تأثُّراً بغيرها من حيث اختلاط العناصر غير العربية بالسكان العرب المحلِّيين؛ وذلك لأنها بعيدة عن مواطن الامتزاج السكاني المتمثِّلة، عادة، بالمناطق الساحلية والأماكن المقدَّسة. وعلى هذا الأساس فإن الغالبية العظمى من أهلها ينتمون إلى قبائل عربية معروفة النسب. ورغم أن تلك القبائل مستقل بعضها عن بعض من حيث التسمية مما يوحي بوحدة القبيلة وتميُّزها وانفرادها عن غيرها - وهذا هو الغالب في التركيب القبلي - إلا أنه يحدث، أحياناً، أن عناصر، أو فرداً، من قبيلة معيَّنة ينضمُّون إلى قبيلة أخرى لسبب من الأسباب؛ كاختلافهم مع أكثرية قبيلتهم، ومن ثُمَّ اضطرارهم إلى الالتحاق بقبيلة قوية ينعمون بحمايتها من ناحية ويحصلون على نصيب من الغنائم التي يحرزها، في أغلب الأحيان، الأقوياء من ناحية أخرى. وكانت القبائل القوية ترحِّب بالمنضمِّين إليها شهامة ورغبة في ازدياد قوتها. ويأخذ المنضمُّون اسم القبيلة التي انضمُّوا إليها ويُعتبرون

قسماً منها العموم. ويجري ذلك الالتحاق في مرحلة ما قبل الاستقرار.

وكانت هناك فئات أخرى في المجتمع النجديّ؛ بعضها قد تعود إلى إصول عربية ضاعت أو سلبت منها لأسباب مختلفة. وبعضها تنتمي إلى أصول غير عربية. ومن هذه الفئة الأخيرة عناصر أتت إلى نجد بطرق متعدِّدة؛ من بينها الرق أو الفرار إليها إمعاناً في البُعد عن ظروف قاهرة كانت تعيشها خارجها. ومن بينها القدوم إلى الجزيرة العربية لتأدية الحج. ولا شك أن الغالبية من هذه الفئة الأخيرة كانت تستقر، عادة، في مدن الحجاز الكبرى حتى باتت تشكِّل قطاعاً كبيراً من سكانها. لكن فريقاً قليلاً منها قد اتَّخذ من بعض البلدان النجدية مستقراً له. وغالباً ما اشتغل أفراده بالتجارة أو الحرف المختلفة.

وكانت نظرة النجديين الاجتماعية نظرة قبلية. ومن هنا فإن ثبوت الانتماء العربي الأصيل كان من الأمور المهمَّة لتحديد مكانة الفرد أو الأسرة في المجتمع. وقد كانت هذه النظرة موجودة لدى البدو والحضر على حدٍ سواء. وتجلَّت أكثر ما تجلَّت في قضية الزواج، وفي مزاولة بعض الأعمال

أو الحرف، حيث لا يتزوَّج المنتمي إلى أصل عربي معروف من فئة غير منتمية إليه، وحيث لا يزاول مهنة كالحدادة ونحوها.

أما من حيث طريقة المعيشة فإن المجتمع النجدي كان حينذاك منقسماً إلى قسمين: حضر وبدو. غير أنه كانت توجد مرحلة انتقالية معيَّنة يمرُّ بها بعض السكان يصعب إلحاق مجتازيها بأيٍّ من القسمين السابقين. ذلك أن هؤلاء لم يقطعوا الصلة بحياتهم البدوية التي كانوا بصدد تركها، ولم يألفوا الحياة الحضرية التي كانوا في سبيل الانتقال إليها.

والدوافع إلى ترك حياة الرعي والتنقُّل واستبدالها بحياة الاستقرار كانت متعدِّدة. ومن بينها ما يعود إلى عوامل مناخية. فقد ترغم أيام القحط الشديد البدو على الالتجاء إلى البلدان إبقاء لحياتهم. وأكثر هؤلاء اللاجئين في الأيام الحرجة كانوا - بدون شك - يغادرون هذه البلدان بمجرَّد تحسُّن الوضع بنزول المطر ونبات الكلأ. ولكنَّ منهم من كان يستمرىء حياة الاستقرار، فيبقى مستقرا. وقد يكون للاحتكاك التجاري أثر في قضيَّة الاستيطان أيضا.

وكما هو متوقَّع جاء استقرار النجديين حول الأمكنة التي تتوافر فيها مصادر المياه اللازمة لقيام الزراعة أهمِّ مقوِّمات حياة الحضر الاقتصادية حينذاك؛ مثل جوانب الأودية المشهورة والواحات المختلفة. وقد يكون الموقع الجغرافي؛ مثل كون المكان واقعاً على طريق تجارية، من الأمور المهمَّة في اختيار موطن الاستقرار، ولكن صلاحيته للزراعة كانت في الغالب فوق كل اعتبار.

والملاحظ أن البلدان النجدية اختلفت في طريقة تطوُّرها واتِّساعها. فبعضها كان قرية واحدة أخذت تنمو شيئاً فشيئاً حتى أصبحت بلدة كبيرة. وهذا هو الغالب بالنسبة لكثير من بلدان نجد. وبعضها تكوَّن من مجموعة أماكن سكنية أو قرى صغيرة متجاورة أخذت تنمو وتتسع حتى اتَّصل بعضها ببعض، وأصبحت في نهاية الأمر مدينة واحدة.

أما تكوُّن القرية ذاتها فإنه اختلف، أيضاً، من قرية إلى أخرى. فأحياناً تكوَّنت القرية عن طريق أحد السكان الحضر - أو مجموعة منهم - بشراء الأرض من مالكها، كما حدث بالنسبة للعُيَيْنة(١)، أو بإعطاء المالك الأرض له، كما هي

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٩.

الحال بالنسبة للمَجْمعة والدِّرْعية[١]، أو بأخذها من صاحبها بالقوة، كما كان من أمر البِيْر[٢]، ثم الشروع بزراعة تلك الأرض والاستقرار فيها. وأحياناً تترك جماعة مستقرَّة مكانها لسبب من الأسباب، ثم تنزل على أطلال قرية خَرِبة فتبعثها من جديد وتستوطنها؛ كما حدث بالنسبة لكلٍّ من بلدتي التُّوَيم وحَرْمة اللتين كانتا لبني عائذ، فتركوهما، فبعثها آل وائل، الذين كانوا قد اضطروا إلى النزوح من أُشَيْقر[٣]. وقد يحدث إنشاء القرية عن طريق استيطان أسرة، أو فخذ من قبيلة، حول مورد ماء، ثم البدء بالزراعة حوله وبناء البيوت. ولكن المتتبِّع لما ذكرته المصادر المتوافرة عن نشأة كثير من بلدان نجد حول الفترة المذكورة في البحث يرى أنها أُنشئت عن طريق الحضر من السكان.

وفي خلال المرحلة الانتقالية من البداوة إلى التحضُّر كان المتنقلون يعيشون - كما ذُكِر سابقاً - حياة لا هي بدوية

---

(١) ابن عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٢ و ٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ص ٣٠-٣١.

صرفة ولا هي حضرية بحتة. كان جزء من وقتهم مخصصاً للرعي وآخر للزراعة. وخلال هذه المرحلة كانت أهمِّية الحِمَى - المَرْعى أو المَفْلى - كبيرة جداً لاعتماد السكان على الرعي جزئيا.

والواقع أن أهمية الحمى ظلَّت ملاحظة من قِبَل السكان حتى بعد هذه المرحلة. يوضِّح ذلك - مثلاً - موقف أهل حَرْمة حين طلبوا من عبد الله الشمري أن ينزل في أعلى الوادي لئلا يحول بينهم وبين المرعى(١).

وحين تكون البلدة مسكونة من قِبَل أناس لا ينتمون إلى عشيرة واحدة فإن المشاكل كانت تقوم، أحياناً، بينهم إما لسبب اقتصادي؛ كالنزاع حول استعمال المياه، وإما لسبب سياسي كخوف أحد الفريقين من سيطرة الفريق الآخر. وفي بعض الأحيان يحاول السكان حلَّ تلك المشاكل؛ وبخاصة ما تعلَّق منها بالناحية الاقتصادية، بطرق سلمية. ولكن محاولاتهم قد تنجح لمدة معيَّنة، ثم تتعثَّر وتفشل لاندماج الجانب السياسي فيها. وهذا ما حدث بالنسبة لأهالي أُشَيْقر. فقد كان يسكنها كلٌّ من آل وُهَبَة وآل وائل، واتَّفقا

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢.

على أن يستغلَّ أحدهما الماء لمدة يوم يذهب أثناءه الفريق الآخر بحيواناته إلى المَرْعى، وفي اليوم التالي يتبادلان الموقف. لكن هذه الطريقة السلمية لم تستمر. فقد خاف آل وُهَبَة من رجحان كفة آل وائل بازدياد وفود أقاربهم إليهم، وقرَّروا التخلُّص منهم، فأخرجوا عائلات آل وائل من البلدة حينما كان رجالهم في المَرْعى، ولم يسمحوا لهم بالدخول إليها إلا لأخذ ما أمكنهم حمله من ممتلكاتهم[١].

وقبل الاستمرار في الحديث عن بعض المقوِّمات الاجتماعية والنواحي الاقتصادية لدى الحضر والبدو في نجد على انفراد، وعلاقة كل منهما بالآخر اقتصادياً، تجدر الإشارة إلى نظرة البدوي إلى الحضري من الناحية الاجتماعية. كان البدويُّ فخوراً بنفسه، معتزًّا بصحرائه التي يرى فيها المكان المناسب للحفاظ على شخصيته وتقاليده. وفي رأيه أن صفات البطولة محصورة في أبناء الصحراء، الذين ينتقلون فيها من مكان إلى آخر بُحرِّية كبيرة، وأن المستقرَّ يفقد الكثير من تلك الصفات العالية. وبطبيعة الحال لم يكن ينظر إلى الحضري في نجد نظرة

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢

احتقار مبعثها أنه أنقى منه أصلا. ذلك أنه يعرف، مثل غيره، أن أكثر الحضر من أصول عربية، وأنهم أبناء عمومته، ولكنه كان يرى أن عوامل التحدِّي العظيمة للصحراء تتضاءل لدى الفرد بمجرَّد استقراره وكونه أصبح محمياً بأسوار. فالحضري - وإن ظهر بمظهر الفارس الشجاع - فإن مخبره ليس مساوياً للبدوي. يدلُّ على ذلك قول الشاعر العنقري، الذي زهدت به إحدى البدويات لأنه حضري:

وراك تزهد يا اريش العين فينا
وتقول خيَّال القرَى زيْن تَصفيحْ[1]

وكان رد الفعل الحضري لهذه النظرة الاجتماعية البدوية مختلفا. فبعض الحضر أوضح أن تلك الصفات البطولية متوافرة عند المستقرين والرحَّل دون تمييز، وبعضهم زعم أن البدوي متغطرس لابد من معاملته بقسوة وعنف حتى يسير سيرة حسنة. مثَّل الفريق الأول الشاعر المشار إليه قبل

(١) فهد المارك، من شيم العرب، بيروت ١٣٨٣هـ، ج٣، ص ٩٩.
وراك: لماذا؟. أريش العين: ذات الرموش الطويلة. زين تصفيح: جميل المنظر فقط، ولا شجاعة لديه.

قليل حين قال:

ترى الظفر ما هوب للظاعنينا
جسم وهو بين الوجيه المفاليحْ
ألبدو واللِّي بالقرى نازلينا
كلٍّ عطاه الله من هبَّة الريحْ[(١)]

ومثَّل الفريق الثاني حُمَيدان الشُّويعر بقوله:

البدوي ان عطيته تسلَّطْ عليك
قال ذا خايفٍ مير بالك عطاه
إن ولى ظالمٍ مفسد بالكُمامْ
وإن ظِلمْ زان طبعه وساق الزكاه[(٢)]

وكانت الزراعة أهمَّ مقوِّمات الحياة الاقتصادية لدى

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
الظفر: الشجاعة. الظاعنين: البدو. جسم: قسمة. الوجيه المفاليح: الوجوه الطيبة. هبَّة الريح: الرجولة والصفات العظيمة وفي طليعتها الشجاعة.

(٢) خالد الفرج، ديوان النبط، القاهرة، ج ١، ص ٤٣.
مير: لكن. بالك عطاه: احذر أن تعطيه. الكمام: الحكم والولاية. زان طبعه: استقام سلوكه.

حاضرة نجد. وكانوا يحبُّونها ويولونها عناية كبيرة. وكان يزاولها العرب الأصلاء وغيرهم ويعتمدون عليها مهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية واتِّجاهاتهم الفكرية. فأغلب القادة الذين نشأت بعض البلدان النجدية على أيديهم - كما ذُكِر سابقاً - اهتمُّوا بالزراعة واحتضنوها. وبعض علماء تلك الفترة وقفوا منها الموقف نفسه، الذي وقفه أولئك القادة. وأقرب مثال على ذلك أن الفقيه المؤرخ أحمد المنقور كان يتعيَّش من الزراعة(١).

وبطبيعة الحال لم يكن جميع مالكي الأرض يقومون بزراعتها، وإنما كان الوضع الاقتصادي هو المهيمن على الموقف. فأحياناً يقوم المالك بالزراعة، وأحياناً يستأجر من يقوم عنه بها. وإذا كان غنياً بدرجة تخوِّله شراء عبيد فإن هؤلاء يساهمون في زراعة أرضه. وأحياناً أخرى يؤجِّر المالك أرضه إلى شخص آخر ليقوم بزراعتها(٢). أو يتَّفق معه على رعاية مزرعته وتنميتها بقسم معيَّن من ثمرتها.

---

(١) أحمد المنقور، تاريخ الشيخ أحمد المنقور تحقيق الدكتور عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٠هـ ص ص ٥٨ و٧٥-٧٧.

(٢) أحمد المنقور، الفواكه العديدة في المسائل المفيدة، ط ٢، دمشق ١٣٩٩هـ، ج ١، ص ١٥٦.

وكانت نجد تنتج أنواعاً مختلفة من المحصولات الزراعية والخضروات والفواكه. لكن النخيل كانت - فيما يبدو - أهمَّ تلك الأنواع لدى السكان، كما كانت أحبَّ الأشجار إلى نفوسهم لما تعود به عليهم من فوائد متعدِّدة. فإضافة إلى ثمارها المهمَّة في التغذية كان كل جزء منها يُستخدَم في غرض من أغراض حياتهم اليومية حينذاك. وليس غريباً متى ما أدركت قيمتها الاقتصادية الكبيرة أن يتغنَّى بها شاعر مثل حُمَيدان الشُّويعر بقوله:

ترى الخيْر في راسياتْ الجذوعْ
إلى دَلْبَحنْ السنين الحطايمْ
توفِّر حلالك وتفرح عيالك
ويكثر نوالك بيوم الصرايمْ[(١)]

وأن يحثَّ على الدفاع عنها بقوله:

احربوا واضربوا دون حُذْب الجريد
واذكروا قول حاتمْ ولاشٍ سواه

(١) خالد الفرج، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٤٦.
ترى الخير: اعلم أن الخير. راسيات الجذوع: المراد النخل. إلى دَلْبَجن: إذا توالت السنوات حتى أصبحت في آخرها. نوالك: عطاؤك؛ أي تصدُّقك. يوم الصرايم: يوم جني التمر من النخل.

موتكم بالبواترْ لكم كبر كار
وموتكم بالتوجِّعْ عليكم زراه[١]

وكانت تجابه المزارعين النجديين مشكلات متعدِّدة، ولكنها تختلف من مكان إلى آخر. فمشكلات سكان الخَرْج والأفلاج - مثلاً - كانت أقلَّ من مشكلات غيرهم من سكان بعض المناطق النجدية لسهولة الريِّ فيهما من ناحية، ووفرة المياه من ناحية ثانية. وكان على أناس غيرهم من المزارعين في نجد أن يواجهوا مشكلات إضافية أخرى؛ مثل استخراج الماء من الآبار، وهو أمر يتطلَّب حيوانات تقوم به، ويداً عاملة تلاحظ تلك الحيوانات. ومثل حدوث جفاف مياه الآبار، أحياناً، لعدم سقوط المطر، كما وقع لأهل سُدَير، واضطر بعضهم إلى الرحيل عن مواطنهم سنة ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م[٢].

وهناك مشكلات أخرى كان المزارعون النجديون عموماً

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤.
حدب الجريد: المراد النخل. البواتر: السيوف البتَّارة. الكار: الرفعة والشأن. زراه: عيب ومنقصة.
(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٥.

يقاسونها، أحياناً، فتحدث أضراراً بالغة بمزروعاتهم ومحصولاتهم وتنهك حالتهم الاقتصادية؛ مثل البَرْد الشديد والأمطار الغزيرة المصحوبة أحياناً بالعواصف أو البَرَد، ومثل الجراد، وتخريب المحصولات، أو نهبها، من قِبَل الأعداء. ففي سنة ١١٢٢هـ/ ١٧٠٠م - مثلاً - خرَّب البَرْد ما كان في سنبلة من الزرع[١]. وفي سنة ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٦م أسقطت الريح ألف نخلة من نخيل القارة والروضة[٢]. وفي سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م قطعت عنزة نخيل بلدة عُشَيرة[٣]، كما نهب الأعداء ذُرَة أهل أُشَيْقر سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م[٤].

وفي منطقة جغرافية وفترة زمنية كالمنطقة والفترة اللتين يتناولهما هذا الحديث كانت هناك أهمِّية اقتصادية لأنواع من الحيوانات، فقد كانت الإبل مهمَّة بالنسبة للسكان المستقرين. كان المزارعون يستخدمونها، أحياناً، لاستخراج الماء من الآبار، وكانت تُعمَل من جلودها

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٠. ابن عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.

(٢) المنقور، **تاريخ**، ص ٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٤) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٨.

المدبوغة غُرُوب لإخراج ذلك الماء.

وبجانب استخدامها في مجال الزراعة فإنها كانت تخدم التاجر والمسافر والمحارب. وكان لحمها من أهمِّ مصادر اللحوم لتغذية السكان. وكانت البقر ذات فائدة جيِّدة؛ سواء في المجال الزراعي أو في إمداد الأهالي باللَّبن واللحوم، كما كانت الأغنام تُقْتنى من قِبَل الحضر للانتفاع بألبانها ولحومها.

أما الخيل فلم تكن كثيرة عند الحضر مثل كثرتها عند البدو لاختلاف الحياة الاجتماعية لدى الطرفين. فقد كانت الغزوات عند الفريق الأول أقلَّ منها عند الفريق الثاني. وفي الغزوات تظهر أهمِّية الخيل الخاصة. وأما الحمير فكانت تخدم أغراضاً معيَّنة؛ مثل استخدامها في مجال الزراعة وإحضار المنتجات الزراعية وغيرها إلى الأسواق، والانتقال عليها من مكان إلى آخر.

ذلك باختصار ما كان من أمر الزراعة أهمِّ مقوِّمات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد حينذاك وما يتعلَّق بها. أما الجانب الحيوي الآخر من جوانب تلك الحياة لديهم فقد كان التجارة. وبإمكان المرء أن يلاحظ وجود ثلاثة

أنواع من التجارة في تلك الفترة يمكن أن تُطلَق عليها التسميات الآتية: تجارة محلِّية، وتجارة إقليمية، وتجارة خارجية.

أما الأولى؛ وهي للتجارة المحلِّية، فقد تجلَّت في التعامل التجاري بين السكان الحضر أنفسهم في كل بلدة على انفراد. وكانت المنتجات الزراعية أو المصنوعات المحلِّية تباع، أحياناً، بطريقة مباشرة إلى المستهلك، وأحياناً تباع إليه عن طريق طرف آخر يأخذ نصيبه من الكسب من أحد الفريقين. كان، أحياناً، يشتري السلعة من المزارع أو الصانع أو يستوردها من خارج البلدة ثم يبيعها إلى المستهلك.

وأما التجارة الإقليمية فهي تلك التي كانت قائمة بين بلدتين نجديتين أو بين حاضرة نجد من جهة وباديتها من جهة ثانية. ومن المعروف أن بعض البلدان أكثر إنتاجاً من البعض الآخر، فكان الفائض عند بعض يُصدَّر إلى البعض الآخر المحتاج. ومن المعروف، أيضاً، أن كلاً من الطرفين الحضر والبدو محتاج للآخر. فالبدوي يأتي إلى البلدان ليشتري متطلَّباته من تمر وحبوب وملح وملابس وأوانٍ

وأسلحة، وليبيع ما يزيد على حاجته من إبل وأغنام ودهن وجلود وأصواف. وفي أحيان قليلة كان بعض التجار من الحضر يذهبون إلى أماكن وجود البدو ليشتروا ما يجدونه مناسباً لهم ويبيعوا ما قد يكون معهم مما يحتاج إليه أولئك البدو.

وكانت أسعار الأطعمة بصفة خاصة تتغيَّر كثيراً من وقت إلى آخر حسب جودة المحصولات ووفرتها، وطبقاً لسنة القحط وسنة الربيع، أو تمشِّياً مع قانون العرض والطلب. فمثلاً بيع صاع القمح سنة ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م بثلاث محمديات، بينما بيعت خمسة أصواع منه، بعد ذلك بثلاث سنين، بمحمدية واحدة[١]. وفي سنة ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م بيعت مئة وزنة من التمر في بداية الأمر بأحمر، ولكن حينما قدمت إلى السوق جماعات من قبيلة عَنَزة لتشتري حاجتها من ذلك المحصول قفز سعره فجأة إلى الضعف[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢١٦و٢١٩.
(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ٢٣١.
والمحمَّدية عملة عثمانية من الفضة والأحمر عملة عثمانية من الذهب.

وإلى جانب البيع الحاضر المعتاد كانت هناك أساليب أخرى؛ منها أن يدفع شخص إلى آخر مبلغاً من المال على أن يدفع إليه مقابل ذلك مقداراً معيَّناً من التمر أو البر أو نحوهما وقت جني الثمار(١).

ومن أشهر العملات التي كان يستعملها النجديون آنذاك الأحمر والمحمدية(٢). وإلى جانب هاتين العملتين كانت هناك عملات أقلُّ شهرة؛ مثل المِشْخص والمطُبَّق والحَرْف والجَدِيدة(٣).

أما التجارة الخارجية فهي تلك التي كانت قائمة بين سكان نجد كمنطقة وسكان الأقطار الأخرى. والواقع أن نجداً لم تكن تنتج كل ما يحتاج إليه سكانها. ولذا كان لابد من استيراد ما كان غير متوافر فيها، أو ما كان غير كاف؛ مثل بعض الأطعمة والملابس والسلاح. لكنها من ناحية أخرى كانت غنيَّة ببعض المنتوجات الحيوانية؛ مثل الإبل

(١) المنقور، الفواكه، ، ج ١، ص ٢٢٥.
(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٩.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٢٣٢، ٢١٦-٢١٩. المنقور، الفواكه، ج١، ص ١٥٨.

والخيل. ومن هنا انطلق التجار النجديون من بلادهم وإلى البلدان الأخرى بائعين ومشترين.

لقد بلغت درجة غنى منطقة نجد بالإبل حداً جعلها تُسمَّى "أم البل". وطبقاً لما ذكره بعض الرحالة الغربيين، الذين كتبوا حول هذا الموضوع بعد هذه الفترة بقليل، كان الرجل من قبيلة عَنَزة، الذي يملك أقلَّ من عشر نوق، يعتبر فقيراً. وكان معدَّل ثروة الأسرة من قبيلة قحطان حوالى ستين بعيرا(١).

وسواء كان التقدير السابق صحيحاً أو مبالغاً فيه إلى حدٍ ما فإنه ما من شك أن نجدا كانت غنيَّة بالإبل بمقدار يزيد كثيراً عن حاجتها حينذاك. وهذا أمر استمر إلى عهد قريب.

وكانت الخيل النجدية تُصدَّر إلى مناطق مختلفة من بينها البصرة. وفي وقت لاحق كانت تؤخذ من هناك إلى الهند(٢).

ورغم أن التجار النجديين ذهبوا إلى مختلف الأقطار القريبة منهم إلا أن علاقاتهم التجارية مع الجهات الشرقية

---

(١) Burkhardt, J. L. Notes on the Bedouins and Wahabys. London, 1831, Vol. 1. P.69.

(٢) Ibid

والشمالية الشرقية من جزيرة العرب كانت، فيما يبدو، أعمق من غيرها. وكانوا يستوردون من المنطقة الشرقية أو عن طريق موانئها بعضاً مما كانوا يحتاجون إليه[١]. وكانت العباءات الشرقية تفوق غيرها تقديراً لدى أهل نجد[٢].

وكثيراً ما ذهب إلى الجهات السابقة مع التجار أناس يبحثون عن العمل؛ سواء في المجال الزراعي أو البحري أو غيرهما. وقد استقر بعض أولئك المذكورين في تلك الجهات، ووصل استقرارهم إلى بغداد حيث أصبحوا فيها قوة يستعين بها بعض باشوات الأتراك في صراعهم حول السلطة في تلك المدينة[٣].

وعلى أيٍّ حال، فإن القوافل التجارية بين نجد وغيرها من الأقطار كانت تتعرَّض، أحياناً، للخطر نتيجة لهجمات رجال القبائل البدوية عليها؛ وذلك لانعدام السلطة السياسية القوية القادرة على حفظ الأمن في المنطقة. صحيح أن القوافل كانت تأخذ معها رفيقاً من كل قبيلة يُتوقَّع المرور في

---

(١) Abu-Hakima, Op.Cit, P.4.

(٢) المنقور، الفواكه، ج١، ص ١٩٧.

(٣) Burkhardt, Op. Cit. Vol. 11. P. 29.

منطقتها. وبذلك تسلم من مهاجمتها، ولكن القوافل، أحياناً، تُصادَف بفريق من قبيلة ليس معها من ينتمي إليها، فتصبح عرضة لنهبها؛ وبخاصة أن رجال القبائل رُحَّل. بل إن الحضر أنفسهم قد يهاجمون القوافل التجارية إذا كان بينهم وبين أصحابها عداء؛ كما عمل أهل البِيْر حين أخذوا قافلة تحمل الألبسة لأهل العُيَيْنة سنة ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م(١).

وفي مجال الكلام عن الناحية الاقتصادية في نجد تجدر الإشارة إلى الحج وفائدته لأهل هذه المنطقة. فبالرغم من أن الأثر الكبير للحج من الناحية الاقتصادية كان في الحجاز؛ وبخاصة مدنها الكبرى، فإن نجداً لم تكن بمعزل عن التأثُّر به من هذه الناحية. فبعض البلدان كانت واقعة في طرق الحج المتَّجهة من شرقي الجزيرة العربية أو شماليها وما وراهما إلى الحجاز. وكثيراً ما توقَّفت قوافل الحجاج في هذه البلدان لشراء ما تحتاج إليه من أطعمة وغيرها، أو استبدال بعير أجهده السير بآخر. وقد يبيع رجال تلك القوافل شيئاً مما معهم إلى السكان المحلِّيين(٢).

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٢٢٨ و ٢٣٢.

والمصادر المتوافرة عن هذه الفترة لا تمدُّ الباحث بمعلومات كافية لتكوين رأي مرجَّح حول نسبة من يعملون في الحقل الزراعي من حاضرة نجد إلى من يمارسون الأعمال التجارية. لكن من المؤكَّد أن سكان بعض المناطق كانوا أكثر نشاطاً من سكان المناطق الأخرى في ميدان التجارة؛ وبخاصة التجارة الخارجية. والمصادر المشار إليها لا تمدُّ الباحث، أيضاً، بمعلومات كافية عن مستوى المعيشة، ولكن المرجَّح أن ذلك المستوى كان منخفضاً على العموم نظراً لعدم الاستقرار المطلوب لكل رخاء اقتصادي من ناحية، ولظروف المنطقة الطبيعية، أحياناً، من ناحية ثانية. وهذا سبب من أسباب النزوح المؤقت أو الدائم لبعض الأفراد أو الجماعات من نجد.

أما نسبة الأغنياء في المجتمع فتبدو قليلة. وكانت مظاهر الغنى متعدِّدة، ومن بينها امتلاك الرقيق واقتناء الخيل. وارتباط الحضري بالأرض غيَّر ولاء المنتمي إلى أصل عربي من القبلية إلى الأُسَرية لأن ظروف حياته الاجتماعية والاقتصادية تغيَّرت. ومع هذا فإن الأصالة النسبية ظلَّت من الأمور المعتبرة في تقدير المكانة الاجتماعية للفرد. وإلى

جانبها كانت هناك عوامل أخرى كالوضع الاقتصادي والزعامة السياسية أو الدينية. والواقع أنه قد يرد في كلام بعض شعراء هذه الفترة ما يوحي بقوة العامل الاقتصادي عند النظرة الاجتماعية. فحُمَيدان الشويعر يقول:

الأموالْ ترفعْ من ذراريه خانسه
والقُلُّ يهفي ما ارتفع من مغارسه
ألا يا ولدي صُفر الدنانير عندنا
ترفعْ رجالٍ بالموازين باخسه
وكم ترفع الأموال من فرخ باشق
تعلَّى على حرٍّ بكفَّيْه فارسه[(١)]

ومع التسليم بوزن المال فإن هذا القول لا يجب أن يؤخذ بحرفيته إلى آخر مدى في مدلوله. فحُمَيدان نفسه وضع صفات معيَّنة أخرى ترفع مكانة الفرد في مجتمعه حين قال:

---

(١) خالد الفرج، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٥١.
ذراريه: ذريته. خانسه: منخفضة المستوى اجتماعيا. والمراد من هو ليس من محتد. أصيل. القل: الفقر. يهفي: يحطُّ من شأن. ما ارتفع من مغارسه: المراد من هو أصيل المحتد. صفر الدنانير: المراد العملة الذهبية. باخسه: ناقصة. باشق: طير من فصيلة النسور، لكن ينظر إليه اجتماعياً نظرة احتقار. حرّ: المراد الصقر.

أربعٍ يرفعن الفتى بالعيون
الظُّفرْ والكرمْ والوفا والصلاحْ[١]

وواضح أن هذه النظرة الأخيرة مزيج من مُثُل عربية وقِيمٍ إسلامية، أو بتعبير آخر هي النظرة العربية الإسلامية.

وكان من سجايا المجتمع النجدي النبيلة حينذاك حب الخير المتمثِّل في التعاطف مع الفقراء، حيث كان البعض يعيِّن، أو يوقف طعاماً، يفطر به الصائمون في المساجد خلال شهر رمضان المبارك[٢].

وكان من نتائج الاتصال، الذي كان يتمُّ بين النجديين وسكان الأقطار الأخرى؛ سواء في الميدان التجاري أو غيره، دخول بعض الأمور إلى المجتمع النجدي. من ذلك - مثلاً - شرب القهوة. وقد أورد المنقور آراء الفقهاء حولها[٣]. ويبدو أن المجتمع لم يكن متقبِّلاً لها كلَّ التقبُّل. فقد جمعها حميدان مع النارجيلة في معرض سخريته من ابنه

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١
(٢) المنقور، **الفواكه**، ج ١، ص ٤٤٠.
(٣) المنقور، **الفواكه**، ج ١، ص ص ٤١٠-٤١٣.

حين قال:

اليمني فيها الفنجالْ　　　والیسری فیها البُرْبوره(١)

والنارجيلة والغلاوين كانتا مما دخل إلى هذا المجتمع نتيجة الاتصال المشار إليه. وهما سُبَّة في نظر ذلك الشاعر؛ إذ قال:

يا عيال الندم يا رُضَّاع الخدمْ
يا غذايا الغلاوينْ والبَرْبره(٢)

وكانت المرأة النجدية تقف جنباً إلى جنب مع الرجل في محاولة التغلُّب على مشاكل الحياة. كانت تقوم بأعباء المنزل ورعاية الأطفال، وتساعد في الزراعة، وتخرج، أحياناً، لجمع الأعشاب أو الحطب. وقد أشارت المصادر

(١) خالد الفرج، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٦١.
اليمني: أي اليد اليمنى. البربوره: النارجيلة.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١.
الغلاوين: جمع غليون؛ وهو ما يستعمل لتدخين التبغ. والبربوره؛ المراد النارجيلات التي يدخَّن فيها الجراك. والمقصود بالمعنى العام من البيت هجاء الذين كان يهجوهم، وكأنه يقول لهم: أنتم لستم من قوم كرام النفوس رفيعي الشأن؛ بل ممن لم يرضعوا من نساء كريمات، ولم ينفذُّوا إلا بما هو ممقوت.

إلى بروز بعضهن في المجالات الاجتماعية المُهمَّة[١]. ولكن الدور القيادي كان للرجل بطبيعة الحال. وكان الزواج المبكِّر من الأمور الشائعة في المجتمع؛ وبخاصة بين أفراد الأُسَر الغنيَّة[٢].

وحينما يحاول الباحث التعرُّف على أسلوب حياة بادية نجد؛ وبخاصة في تلك الفترة، من خلال ما هو متوافر من معلومات، يجد أن ذلك الأسلوب لم يكن مختلفاً عما كان عليه أسلوب آبائهم وأجدادهم عبر العصور التاريخية المختلفة. وقد فرضت عليهم الظروف المحيطة بهم استمرار ذلك الأسلوب وبقاءه. ظلَّت الصحراء بمراعيها، والخيمة والإبل، أهمَّ مقوِّمات حياتهم. كان البدوي يرى في الصحراء المكان المناسب لحياته، كما كان يرى فيها ضماناً للحفاظ على شخصيته وتقاليده. وإضافة إلى كونها مجالاً فسيحاً لتحرُّكه فإنها؛ كانت منطقة دفاعه ضد أيِّ عدو من خارجها. وكانت الخيمة المأوى المناسب لمن حياته غير مستقرة وظروف معيشته تحتِّم عليه الانتقال من مكان

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٧.
(٢) حسين بن غنَّام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتَعْداد غزوات ذوي الإسلام، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج ١، ص ٢٦.

إلى آخر جرياً وراء المراعي الحسنة؛ إبقاء لحيواناته وتنمية لها، وبالتالي، إبقاء لحياته الاقتصادية ذاتها.

وبطبيعة الحال كان المطر أهم شيء يؤثِّر في حياة البدوي تأثيراً مباشرا. وإذا كان مهمًّا في حياة الحضري فإنه كان مهمًّا جداً بالنسبة لرجل البادية، فهو مصدر سعادته وغناه، كما أن القحط عدوَّه اللدود، الذي يضطره إلى الالتجاء إلى المدن والقرى ضماناً لحياته المهدَّدة بالخطر. والواقع أن عدم نزول الأمطار لم يكن شيئاً غير مألوف في هذه المنطقة. وكثيراً ما سبَّب انقطاعه الكثير من المشاكل للبادية بخاصة؛ سواء تلك المشاكل الاقتصادية؛ كتلف الحيوانات أو ضعفها أو المشاكل المتمثِّلة في الحروب. وذلك أن القبائل التي لم تحظ بالأمطار في أماكن نفوذها ستحاول حتماً دخول المناطق التي نزل عليها المطر وإن كانت تابعة لقبائل أخرى. وأحياناً تسمح هذه الأخيرة لها بالدخول إلى مناطقها تبرُّعاً أو مقابل شيء معلوم، ولكنها أحياناً أخرى لا تسمح لها بذلك فعندئذٍ قد تقوم بينهما حروب.

وأما الإبل فكانت أهمَّ مقوِّمات حياة البدوي الاقتصادية وأهمَّ حيوان بالنسبة إليه. فهي مصدر من مصادر اللَّبَن

واللحوم لديه، وهي وسيلة مواصلاته. وهي فوق هذا وذاك معيار لكثير من أمور حياته الاجتماعية. فالديات والمهور - مثلاً - كانتا من الأشياء التي تُقدَّر بأعداد معيَّنة من الإبل. وكانت مكانتها لدى رجل الصحراء تساوي مكانة النخلة عند أبناء المدن والقرى. فلا عجب إذا ذكرها جنباً إلى جنب مع محبوبته في الدفاع عنها والاستماتة من أجلها:

نطعنْ لعينْ اللِّي تهلَّ دموعها
تبكي وفي تالي البكا نخاوي
تقول يا الظُّفران من عاداتكم
هوشوا عسى يبقى لكم شلاوي
ونطعنْ لعين اللِّي تزجّ حنينها
عفرا تبي صيفية المطاوي[1]

(١) عبد الله الحاتم، خيار ما يلتقط من الشعر النبط، دمشق، ١٣٨٧هـ، ج ٢، ص ٢٥٦.
نطعن: نطاعن بالرماح. نخاوي: إثارة المقاتلين وتحميسهم بالنخوة. ولكل قبيلة وجماعة نخوتها الخاصة. فنخوة أهل العارض - مثلاً - "هل العوجا".
شلاوي: بقايا. عفرا تبي صيفية المطاوي: المراد الناقة العفراء التي تحنُّ إلى موارد آبار المياه المطوية بالحجارة.

وقد سبقت الإشارة إلى وفرة الإبل في نجد بدرجة تزيد على حاجتها.

وكانت الخيل، أيضاً، كثيرة لدى رجال البادية النجديين بحيث كانوا يستغنون عن بعضها، فيبيعونه ويُصدَّر، أحياناً، إلى الأقطار الأخرى كما ذُكر سابقا. وكانت منفعة الخيل للبدوي كبيرة؛ وبخاصة أن حياته كانت مملوءة بمفاجآت الغزو دفاعاً وهجوماً مما يتطلّب هذه الحيوانات السريعة. وإضافة إلى منفعتها فإنها كانت من الأشياء التي يُعتزُّ باقتنائها ويُفتخر في المجال الاجتماعي.

وكانت الأغنام، أيضاً، مهمَّة من الناحية الاقتصادية لقبائل البدو الرحَّل. ومن منتجاتها كثيراً ما اشتروا حاجاتهم الضرورية الأخرى كالأطعمة والملابس والأسلحة؛ إضافة إلى عمل بيوتهم من أصوافها، وإمدادها لهم باللَّبن واللحوم.

وغنيٌّ عن البيان أن حياة البدو الاقتصادية تقوم على الرعي، ولكن هناك مصادر أخرى؛ من أهمِّها الغزو؛ وهو سلاح ذو حدَّين. فالغني اليوم بسببه قد يصبح فقيراً غداً بسببه أيضا. ومن تلك المصادر ما كانت تأخذه بعض القبائل

من إتاوات على بعض السكان الحضر.

ولقد سبقت الإشارة إلى استفادة حاضرة نجد من مرور القوافل المتَّجهة إلى الحجاز في منطقتهم. والواقع أن استفادة البدو في هذه المنطقة كانت أكبر من استفادة الحضر. ذلك أن الحجاج كانوا يستأجرون، أحياناً، إبلا من البدو لنقلهم، وكانوا يعطون رؤساء القبائل هدايا اتِّقاء لخطر هجومهم عليهم، كما كانوا يدفعون إتاوات معيَّنة، أحياناً، مقابل مرورهم بمناطق نفوذهم. وكانوا يستأجرون منهم حرساً وأدلَّاء، ويشترون منهم أغناماً ودهناً ونحوهما. وفوق كل هذه الأمور كانت تلك القوافل، في بعض الأوقات، هدفاً لغارات البدو ونهبهم[1].

وظروف الحياة الخاصة بالبدوي من حيث عدم الاستقرار في مكان دائم، ومن حيث الصراع حول موارد المياه ومواطن الكلأ، جعلته يحس بارتباطه القوي بقبيلته وولائه لها. وما دام فرداً منها من حيث النسب فإنه كان لا يرى فرقاً بينه وبين الأفراد الآخرين منها في مجال النظرة

(١) المنقور، **تاريخ**، ص ص ٦٧ و ٧٥؛ ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ص ٢٢٠ و ٢٣٩-٢٤٠.

الاجتماعية. وبقي التفاوت في المكانة مبنياً على صفات شخصية معيَّنة كالبطولة والكرم. وما من شك أن الشخصيات التي كانت قادرة على تحقيق قدر أكبر من تلك الصفات والتحلِّي بها كانت لها مراكز الصدارة من الناحية العملية ومن حيث نظرة المجتمع البدوي إليها. وليس غريباً أن كانت البطولة والكرم على رأس السجايا المعهودة. ذلك أن حياة البدو كانت مملوءة بمفاجآت الغزو والضيافة. والذي كان قادراً على القيام بأداء واجبات تلك الظروف كان مؤهَّلاً لاحتلال المركز القيادي. ومن الشخصيات التي كانت مرموقة في المجتمع، إلى جانب رؤساء القبائل والبطون، العُقَداء ورجال العُرْف وشعراء القبيلة.

وفي نهاية الكلام عن الناحية الاجتماعية لدى بادية نجد حينذاك لابد من الإشارة إلى أن المرأة البدوية كانت لا تقلُّ عن شقيقتها الحضرية مساهمة في العمل، وبروزاً في المجتمع إن لم تكن قد زادت عليها.

ثالثاً - الأوضاع السياسية

يمكن أن يقال: إن المقوِّمات، التي كان حضر المجتمع النجدي حينذاك يرون ضرورة توافرها في الزعامة السياسية، لم تكن تختلف، بصفة عامة، عما هو معروف عن مكوِّنات الزعامة العربية التقليدية التي من أهمِّها أصالة النسب والشجاعة والكرم. وزعامات البلدان النجدية في تلك الفترة كانت تنتمي إلى قبائل عربية مختلفة. وليس غريباً أن تحتلَّ قبيلة تميم مركزاً قوياً بين تلك الزعامات نظراً لكثرتها العددية من ناحية، ولنزعتها الاستيطانية المعهودة منذ زمن طويل. ومن أمثلة الأمراء المنتمين إلى هذه القبيلة أمراء العُيَيْنة، أقوى مدينة نجدية في ذلك العهد، وأمراء ثَرمْداء وروضة سُدَير وبُرَيدة.

وعلى أيِّ حال، فإن الأسر، التي كانت تسيطر على مقاليد الأمور في بلدان نجد، وصلت إلى الإمارة بطرق مختلفة. من هذه الطرق أن يكون جد الأسرة هو الذي أنشأ البلدة أو أحياها بعد أن هجرها آخرون. وكثيراً ما تمَّ ذلك

بشراء المكان من مالكه الأول كما حدث بالنسبة للعُيَينة[١]. ومن هذه الطرق أن يتمَّ الاستيلاء على البلدة بالقوة وينتزع المستولون من خارجها الإمارة ممن كانوا يتولَّون الزعامة فيها. مثال ذلك انتزاع آل حنيحن الدواسر البِيْر من سُبَيْع سنة ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م[٢]، وأخذ الهزازنة نَعَام والحَرِيق من سُبَيْع، أيضاً، سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م[٣]. وفي كلتا الحالتين السابقتين تكون الإمارة وراثية تقليدية في الأسرة، أو تذهب إلى شخصية معيَّنة من بين أفرادها بترجيح منهم، باستثناء الصراعات التي قد تقوم داخل الأسرة أحيانا.

والصراع حول السلطة أمر مألوف في تاريخ جميع الأُسَر في مختلف بلاد العالم، وفي سائر الفترات التاريخية. ولكن نسبة ذلك الصراع تتأثَّر باختلاف الظروف. وعلى هذا الأساس فإن ما يلاحظه القارىء في المصادر المتوافرة عن الصراع داخل الأُسَر الحاكمة في نجد حينذاك حول الزعامة ليس أمراً غريبا؛ وبخاصة أن المنطقة كانت تمرُّ بمثل

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٩.
(٢) ابن عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥١.

الأوضاع الاجتماعية التي أشير إليها سابقاً.

لقد امتد ذلك الصراع إلى أقرب الأقرباء. ففي سنة ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م - مثلاً - قتل إبراهيم بن وَطْبان أخاه مَرْخان حول زعامة الدِّرْعية[١]. وفي سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩م اعتقل أولاد عثمان بن نحيط أمير الحُصُون أباهم، ونفوه من البلدة بتشجيع من أمير جلاجل[٢] وإلى ذلك يشير حُمَيدان الشُّويعر بقوله:

مثلْ راعي جلاجلْ مع ابن نحيط
أدركه من زمانٍ وهو يسحره
أظهره للفضا من كنين الذرى
ثم جَوَّد عنه ساكف المحجرة
ثم قال: احملوا يا عياله عليه
واحدٍ بِلِّمه وآخرٍ عقِّره[٣]

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٤.
الحصون وجلاجل بلدتان من بلدان إقليم سُدَيْر في نجد.
(٣) خالد الفرج، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ٣٠-٣١.
راعي جلاجل: أمير جلاجل. يسحره: يكيد له. الفضا: خارج =

وفي سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م قتل عثمان بن إبراهيم ابنه إبراهيم، الذي كان أميراً في القَصَب[١].

وكان لبعض القوى خارج البلدان النجدية دور في الصراع الداخلي وتغيير القيادة، أحياناً، كما حدث بالنسبة لابن نحيط المشار إليه، وكما حدث، سنة ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م، حين أخرج ابن مَعمَّر رُمَيْزان بن غشَّام من أم حِمَار، وما أعقب ذلك من قتل الشريف زيد بن محسن لأمير الروضة، ماضي بن محمد، وجعل رُمَيْزان أميراً لها[٢].

= البلدة. كنين الذرى: المراد داخل البلدة. جوَّد عنه ساكف المحجرة: أغلق أمامه الباب بإتقان.
بلِّمه: كتم أنفاسه. عقِّره: قيَّده أو قضى عليه.

(١) محمد الفاخري، **تاريخ الفاخري**، مخطوط، ورقة ٢٠ ب، وابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٢) الفاخري، مصدر سبق ذكره، ورقة ٨ ب، والمنقور، **تاريخ**، ص ص ٤٥ و٤٧،
وابن عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ص ٥-٥٦. بينما يذكر ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٨ أن الشخص الذي قتله الشريف المشار إليه محمد بن ماضي.

وما دامت هذه هي الظروف، وأن الصراع حول السلطة كان يمتد إلى هذا المدى، فلم يكن مستغرباً أن يوجد صراع حول الحكم بين أُسَر مختلفة داخل البلدة، كما حدث لآل مزروع حين أخذ منهم دوَّاس رئاسة منفوحة سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م[١]. ولم يكن مستغرباً، أيضاً، أن لا تجدي صلة القرابة القبلية، التي قد تكون موجودة بين أمراء بلدة وأمراء بلدة أخرى، في خلق جوٍّ من التآلف أو الوحدة في المنطقة. بل إن وجود مثل تلك الصلة لم يمنع قيام الحروب بين أولئك الأمراء. وأصبح التفكك السياسي نتيجة طبيعية حتى غدت كل بلدة مستقلة بذاتها، وفي أغلب الأحيان ذات علاقة غير وُدِّية مع جارتها. وكان على كل أمير أن يكون في حالة استعداد عسكري دائماً إما لمهاجمة خصمه والحصول على ما أمكن من غنائم، وإما للدفاع عن بلدته ضد أيِّ هجوم من الآخرين. ومن هنا كانت القوة محبَّبة إلى النفوس، وكان المجتمع يرى فيها حلاً لكثير من مشاكله السياسية، فَرُمَيْزان بن غشَّام يخاطب جبر بن سيَّار بقوله:

---

(١) المنقور، **تاريخ**، ص ٦٠، وابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٥.

يا جبر حدّ السيف مفتاح الفرجْ
تراه لصعوب الرجال يذلِّلِ[١]

وحُمَيْدان الشُّويعر يقول:

لا شك بالهندي قضا كلّ عاجزْ
والشِّرب من دم الخصيم كموعْ[١]

ويقول:

والسيفْ القاطعْ والعَزْمه
لارقاب الضِّدْ يهدِّيها
الارنبْ ترقدْ ما تُوذي
ولا شفت الناس تخلِّيها

---

(١) عبد الله الحاتم، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٨٠. =
= رميزان بن غشَّام: كان أميراً لروضة سُدَير؛ وهو شاعر مشهور.
وجبر هو: جبر بن سيَّار شاعر مشهور أيضا. لصعوب الرجال: الأقوياء من الرجال.
يذلِّل: يخضع.

(١) عبد الله الحاتم، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٠٩.
الهندي: السيف. وقضا كل عاجز: هكذا ورد في الأصل. فإن صحت الرواية فالمراد أن من عجز عن التوصل إلى حل لما يواجهه فالسيف هو الحل. كموع: شَرَبات.

والسبع الموذي ما يرقد
ولا يوطا بارضٍ هو فيها[١]

والإمارات النجدية تعاقبتها فترات ضعف وقوة. لكن أقوى إمارة ظهرت في المنطقة كانت إمارة العُيَيْنة؛ وبخاصة في زمن رئيسها عبدالله بن مُعَمَّر، الذي تولَّى الإمارة بين سنتي ١٠٩٦و١١٣٨هـ/ ١٦٨٤ و١٧٢٥م. وقال عنه ابن بشر: إنه "لم يذكر مثله في زمانه ولا قبل زمنه في نجد في الرئاسة وقوة الملك والعدد والعُدَّة والعقارات والأثاث"[٢].

ومع ذلك فإنه من الواضح أن تلك العظمة لم تصل إلى درجة تمكِّن العُيَيْنة من الإخلال بميزان القوة السياسي والعسكري.

أما علاقة الحاكم بالمحكوم فإنها كانت تختلف من أمير إلى آخر. والصفة العامة التي يصف بها ابن بشر أمراء نجد في تلك الفترة هي الظلم إذ يقول: "ورؤساء البلدان وظَلَمتُهم لا يعرفون إلا ظلم الرعايا والجور"[٣]. وقد

(١) خالد الفرج، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٨. يهديها: يخضعها.
(٢) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٦

يقال: إن هذا المؤرخ المتحمِّس لدعوة الشيخ محمد بالغ في هذه العبارة، التي وردت في مقدَّمة كتابه، ليوضح الفرق بين ما كانت عليه البلاد قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما آلت إليه حالها بعد ظهورها وانتصارها. لكن ابن بشر لم يكن وحده في إعطاء صورة قاتمة لأمراء تلك الفترة؛ إذ يقول الشاعر المعاصر لهم جبر بن سيَّار:

شيوخ إلى فكَّرتْ فيها لكنَّها
ثعالب طَرْفا تفسد الملكْ جايره
تركّبوا ظُلمَ الرَّعايا وطَبعُهم
يدلِّك عليه إن مات تَشْبَح بصايره(٤)

والأوضاع العامة في المنطقة حينذاك كانت مساعدة على حدوث بعض أنواع من الظلم. ذلك أن القوَّة والاغتيال كانا من طرق الوصول إلى السلطة. والخوف من الثأر قد يملي اتِّخاذ إجراءات تعسُّفية أحيانا. كذلك كان للحالة الاقتصادية

---

(٣) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠.
(٤) الحاتم، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٠٤.
شيوخ: أمراء بلدان. لكنها: لكأنها. طرفا: الطرفا شجرة من فصيلة الأثل. تشبح بصايرة: تشخص عيناه.

أثرها في هذا الأمر. فقلَّة الموارد لدى بعض الأمراء مع متطلَّبات الدفاع والضيافة قد تحتِّم اتِّخاذ إجراءات اقتصادية غير عادلة في نظر الكثيرين. وكان بعض الأمراء لهذا يأخذ مبالغ مالية سنوية - غير الزكاة - من أتباعه(١).

وكان على المحكومين من الحضر أن يصبروا على بعض تلك الأساليب الجائرة لطبيعة حياتهم الاقتصادية التي تعتمد في الغالب على ثروة ثابتة. وكان الفرد يخشى - إن هو حاول الهروب من الجور - فقدان بعض هذه الممتلكات غير القابلة للنقل.

ومع كل ما تقدَّم فقد كان هناك أمراء عادلون يسيرون بأتباعهم سيرة حسنة، ويتعاملون معهم تعاملاً طيباً، ويحلُّون أمور الأفراد بطريقة شرعية. ولا شك أنه كان لبعض القضاة أثر ملموس في هذا الموقف.

ومؤهلات الزعامة السياسية في بادية نجد حينذاك هي المؤهلات التي كان توافرها ضرورياً للوصول إلى مركز القيادة لدى القبائل العربية في العصور المختلفة. وإذا كان

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٢٥.

من المسلَّم به أن أصالة النسب كانت متوافرة لدى أسر القبيلة كلها فإن التفاوت بين الأفراد كان نتيجة لأمور أخرى؛ مثل الكرم والشجاعة والحلم وسداد الرأي. ومتى ازداد توافر هذه الصفات في أحد رجال القبيلة ازدادت فرص تقلُّده مركز قيادتها.

ومع أن زعيم القبيلة كان يُخَتار حسب مؤهلاته القيادية الذاتية من قِبَل رؤساء العشائر والبطون - ومن وراء هؤلاء وأولئك بقية أفراد القبيلة - فإن قرب الفرد نَسَبياً من الزعيم القديم كان من بين مرجِّحات زعامة من سيخلفه. ولهذا يلاحظ أن الزعامة لا تخرج، في غالب الأحيان، عن أسرة الزعيم نفسها، حتى أصبحت لدى كثير من القبائل وراثية أُسَرية تقليدية.

وعلى أيٍّ حال، فإنه يمكن القول بأن الطريق إلى الزعامة لدى بادية نجد في تلك الفترة أقرب إلى الديمقراطية منها لدى حاضرتها. وهي ديمقراطية ناجحة تمتاز بالودِّ والإعجاب من الأفراد لزعامتهم، والتضحية والوفاء من تلك الزعامة لهم. وكان مُتوَقعاً أن يحدث ذلك الاختلاف في العلاقة بين رجال القبائل ورؤسائهم عن العلاقة بين

أفراد الحضر وأمرائهم لاختلاف الظروف السياسية والاقتصادية عند كلٍ منهما. فبعض طرق الزعامة لدى الحضر - كما تقدَّم - كانت القوَّة أو الاغتيال. والثروة لدى الأفراد كانت في غالبها ثابتة. ولهذا اصطبغت علاقة الإمارة بالأفراد بالجور، أحياناً، وضرورة الصبر عليه. أما طريق الزعامة لدى البدو فكانت الاختيار الحر. ولذا كان الزعيم دائماً يفكِّر في دعم رؤساء العشائر وكبار القوم له، كما أن هؤلاء كانوا يشعرون بالثقة بأنفسهم ودورهم المهمِّ في موضوع اختيار الزعامة. وثروة البدوي قابلة للنقل. فلو فرض أن أحد أفراد القبيلة أحسَّ بضغط عليه فإنه كان بإمكانه أن يسوق إبله وأغنامه، وأن يرحل إلى حيث شاء دون أن يناله ضرر اقتصادي كبير مثل ذلك الضرر الذي ينال، عادة، من ثروته ثابتة من الحضر. وكان من السهل على مثل هذا المرتحل أن يجد ملاذاً عند قبيلة عربية أخرى. بل كان من السهل - حسب نظام الدخيل المعروف - أن يجد من كان مجرماً حماية سياسية لدى من يحتمي به. وعلى هذا الأساس اتَّصفت علاقة رئيس القبيلة بأفرادها بالمرونة، وبما أشير إليه من كونها مثالاً حياً لانقياد المعجبين بالقيادة الوفية.

وواضح أنه كان هناك تنظيم سياسي هرمي لدى القبائل. هناك الأفراد الذين يتزعَّمهم مشائخ العشائر والبطون، ثم هؤلاء المشائخ بزعامة رئيس القبيلة. ويكوِّن أولئك المشائخ بقيادة الزعيم مجلس شورى القبيلة، الذي تُبحث فيه الشؤون المهمَّة؛ مثل قضايا الحرب أو السلم مع القبائل الأخرى، والانتقال من مكان إلى آخر للرعي، كما تبحث فيه، أيضاً، مسائل الخلاف داخل القبيلة ذاتها.

ولم يكن رئيس القبيلة، فيما يظهر، يأخذ مبالغ ماليّة سنوية من أفراد قبيلته، وإنما كان ينفق على واجباته من ماله الخاص؛ سواء منه ما ورثه أو حصل عليه نتيجة الغزوات أو فرضه على القوافل المارة بمنطقة نفوذه.

أما علاقة كل قبيلة في نجد بالقبيلة الأخرى فكانت في غالبها سيئة؛ وبخاصة إذا كانت القبيلتان متجاورتين. وكانت القوَّة هي الفيصل فيما كان يحدث بينهما من نزاع؛ سيراً على المثل المشهور "نجد لمن طالت قناته".

والقبائل، التي كانت تتنازع حول موارد المياه ومواطن الكلأ لاحتلال مركز الصدارة في نجد حينذاك، كثيرة. في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كان

هناك نفوذ لفروع من قبيلة لام المشهورة، كما كان هناك نفوذ لبني خالد؛ إذ يقول جعيثن اليزيدي في مدح مقرن آل أجود المقتول سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م:

ونـجـد رعـى رِبْـعـيّ زاهـي فـلاتـهـا
على الرغم من سادات لامٍ وخالد[1]

ولو لم يكن لهاتين القبيلتين نفوذ في نجد حينذاك لما كان هناك وجه لمدحه مقرناً بتحدِّيه لهما. لكن المتتبِّع لتاريخ عبدالله بن بسام بخاصة، وللتواريخ النجدية الأخرى بعامة، يلاحظ أن قبيلة عَنَزة كانت قد أثبتت قوَّتها في ذلك الزمن. وقد ظلَّت، طيلة الفترة المُتحدَّث عنها، تحتلُّ مركز الصدارة في المنطقة. يوضِّح ذلك كثرة هجماتها على القبائل الأخرى وانتصارها عليها في أغلب الأحيان. ومن أشهر القبائل، التي أشارت المصادر إلى قوَّتها في تلك الفترة وكثرة حروبها، الدواسر والظَّفير والفُضُول. وتلي هذه القبائل ذكراً في المصادر آل مُغِيرة وسُبَيْع والسُّهول وقحطان ومُطَير.

(١) مجلة العرب، العدد السابع، سنة ١٣٨٧هـ، ص ٦٠٧.

ومعروف أن قبيلة مُطَير هي التي أزاحت نفوذ قبيلة عَنَزة عن أهم مناطق نجد الرعوية فيما بعد، وأن قبيلة قحطان هي التي حلَّت محلَّ مُطَير في بسط النفوذ على تلك المناطق، كما يوضِّح ذلك قول مويضي البرازية:

نـجـدٍ حـمـيـنـاهـا مـن أولادْ وايـلْ
والـيـوم عـدَّونـا سـكـن وادي الـرَّاك[١]

والمراد بأولاد وايل، هنا، عَنَزة، وبسكن وادي الرَّاك قحطان.

وأول ظهور لمُطَير في هذه المصادر كان سنة **١٠٢٢**هـ/ **١٦١٣**م[٢]. أما أول حرب دخلتها ضد عَنَزة فكان حين اشتركت مع الظفير في وُثَال سنة **١٠٦١**هـ/ **١٦٥٠**م[٣]. ثم أخذت بمفردها غزواً لعَنَزة سنة **١٠٧٨**هـ/ **١٦٦٧**م[٤]. وبعد ذلك اختفى ذكر هذه القبيلة في المصادر المتحدِّثة عن

(١) محمد بن بليهد، **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، دون ذكر لمكان الطباعة، ١٣٩٢هـ، ج ٢، ص ١٣٠
(٢) البسام، مصدر سبق ذكره، ورقة ٣٦ ب.
(٣) المصدر نفسه، ورقة ٤٤ ب.
(٤) المصدر نفسه، ورقة ٤٧ أ.

الصراع في تلك الفترة.

وكما قيل عن قوَّة بعض المدن النجدية بأنها لم تصل إلى درجة تخلُّ بميزان الوضع السياسي والعسكري لصالحها يمكن أن يقال عن قوَّة ما كان قوياً من القبائل المشار إليها. وهكذا استمر الصراع بين البدو كما كان بين الحضر وإن كان بصورة أكثر تعدُّداً لانعدام السلطة المركزية في المنطقة.

رابعاً: الحالة الدينية

أ - الناحية العلمية:

قبل مناقشة الحالة الدينية، التي كانت سائدة في منطقة نجد من حيث الاعتقاد والعمل، يحسن الكلام عن الناحية العلمية فيها والانتماء المذهبي لعلمائها. ومن الواضح أن التعليم في تلك الفترة كان على نطاق طيّق. فقد كان معدوماً لدى قسم كبير من السكان؛ وهم البادية، وكان قليلاً لدى القسم الآخر؛ وهم الحاضرة. وكانت صعوبة الحياة الاقتصادية، بصفة عامة، وانشغال أكثر الناس بالبحث عن لقمة العيش، وعدم من يتولّى التعليم برعاية مالية، من الأمور التي حالت بين الغالبية العظمى من السكان وبين السبيل إلى المعرفة.

ومع ما تقدَّم فقد كانت هناك محاولات معيَّنة للتعلُّم والتعليم حسب الإمكانات المتوافرة حينذاك. ويبدو أنه كان للعامل الديني أثر في إقبال بعض أرباب الأُسَر القادرة مالياً على تعليم أبنائهم قراءة القرآن الكريم أو أجزاء منه على

الأقل، كما أنه كان للعامل الديني، أيضاً، أثر في دفع القادرين علمياً إلى بذل ما في وسعهم لتعليم الآخرين ما يعرفونه من علوم الشريعة. ومما يدلُّ على رغبة بعض النجديين في طلب العلم ونشر المعرفة ما كانوا يقومون به من أسفار داخل منطقتهم وخارجها للتزوُّد بالمعرفة والتعمُّق في العلم(١). ومن دلائل تلك الرغبة استغلالهم فرصة مرور العلماء المتَّجهين إلى الحج بمنطقتهم للاستفادة منهم(٢)، ووقفهم الكتب على طلبة العلم(٣)؛ إضافة إلى اجتهادهم في التدريس.

ومن المؤكد وجود علماء في منطقة نجد قبل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ولعلَّ من أوضح الأدلَّة على ذلك ما وصل إلينا من وثائق شرعية كتبها علماء من هذه المنطقة. ومن هذه الوثائق وثيقة صبيح المشهورة، التي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الهجري

---

(١) المنقور، **تاريخ**، ص ١٤، ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٩٤.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن البسام، **علماء نجد**، ج ١، ص ص ٥-٢١٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

تقريبا[1]، ومن أدلَّة ذلك، أيضاً، أن أحمد بن عَطْوة، المتوفى سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م، قرأ على علماء بلدة العُيَيْنة قبل سفره إلى الشام للتزوُّد بالعلم[2]، ومن المعروف أن أحد أساتذته في دمشق؛ وهو علاء الدين المرداوي، توفي سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م[3]. وذلك يعني وجود علماء في نجد قبل هذا التاريخ.

والمصادر لا تمدُّنا بمعلومات كافية عن علماء نجد خلال القرنين الثامن والتاسع من الهجرة، لكن المعلومات عن علماء هذه المنطقة - من بداية القرن العاشر إلى منتصف القرن الثاني عشر - متوافرة بدرجة لا بأس بها. ومن أهمِّ روافد هذه المعلومات تلك الإشارات الموجودة في تواريخ بعض النجديين كأحمد ابن بسام والمنقور والفاخري وابن بشر وابن عيسى؛ إضافة إلى ما تضمَّنه كتاب الشيخ أحمد المنقور **الفواكه العديدة في المسائل**

---

(١) انظر دراسة حول هذه الوثيقة في **مجلة العرب**، رجب ١٣٨٧هـ، ص ص٥١-٥٩. والدراسة لعبد العزيز المبارك.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن البسام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠١

المفيدة من آراء وفتاوى فقهية لعلماء نجد الذين سبقوه أو عاصروه، وكذلك ما تضمَّنه هذا الكتاب عنهم من أمور أخرى؛ مثل ذكر مشائخهم وتلاميذهم والإجازات التي حصلوا عليها.

وفي هذا العام (١٣٩٨هـ)/ ١٩٧٨م (أخرج فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام كتابه القيِّم المتضمِّن تراجم علماء نجد خلال ستة قرون[١]، وقد ترجم فيه لحوالى سبعين عالماً برزوا في هذه المنطقة من مستهلِّ القرن العاشر تقريباً إلى ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ولا شك أن هناك عدداً قليلاً من علماء نجد عاصروا أولئك العلماء الذين ترجم لهم المؤلف الفاضل، لكنه لم يترجم لهم. وربما كان سبب ذلك عدم توافر المعلومات عنهم لديه[٢].

(١) يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ويحتوي على ترجمة ٣٣٨ عالما.

(٢) من بين هؤلاء أحمد بن فيروز بن بسام، ومنصور الباهلي، وعبدالرحمن الباهلي، وسلطان بن مغامس، وعثمان بن علي بن زيد، وأحمد المرشدي، وحسين بن عثمان بن زيد، وعبد الوهاب ابن موسى، ومحمد بن منصور، وأحمد بن موسى الباهلي، انظر ابن بشر، ج ٢، ص ص ١٩٤و٢٠٦ وعبد الله آل بسام، ورقة ٢٣أ، والمنقور، الفواكه، ج ١، ص ص ٢٢٣-٣٦٠، ٥١٢ وج٢، ص ٣٢٤.

ومما يلفت النظر أن أكثر من نصف علماء نجد، الذين سبقوا ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب، قد وُلِدوا في بلدة أُشَيْقر وتعلَّموا فيها، وأن بعضاً من غير المولودين في هذه البلدة قد وفدوا إليها لتلقِّي العلم عن مشائخها. ومما يلفت النظر، أيضاً، أن أكثر من نصف العلماء النجديين في الفترة المذكورة ينتمون إلى آل وُهَبة؛ وهو آل مُشرَّف أسرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وهذا يدلُّ على أن بلدة أُشَيْقر كانت، خلال تلك الفترة، مركزاً علمياً في منطقة نجد، وأن آل وُهَبة بصفة عامة وآل مُشرَّف بصفة خاصة قد احتلُّوا مركز الصدارة العلمية في نجد حينذاك.

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن عدد علماء القرن الحادي عشر/ السابع عشر الميلادي يقرب من ضعف عدد علماء القرن الذي سبقه، وأن عدد علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر / الثامن عشر الميلادي يقرب من مجموع علماء القرن الحادي عشر. وذلك يوضِّح أن الحركة العلمية في المنطقة كانت في تقدُّم مستمر. ويلاحظ، أيضاً، أن خمسة عشر عالماً نجدياً لم يكتفوا بالدراسة داخل نجد، وإنما سافروا إلى أقطار أخرى للتزوُّد بالعلم والمعرفة، وأن

خمسة من هؤلاء كانوا من علماء القرن العاشر الهجري، وستة من علماء القرن الذي يليه، وأربعة من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر. وهذا يعني أن نسبة المسافرين من علماء نجد إلى خارجها قلَّت بالتدريج. وربما كان ذلك عائداً إلى أمرين: أحدهما ازدياد عدد العلماء داخل نجد ونبوغ بعضهم مما يتيح الفرصة لطلاب العلم النجديين أن يتعلَّموا في وطنهم، والثاني قلَّة المشاهير من علماء المذهب الذي ينتمون إليه خارج البلاد النجدية من منتصف القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. ففي الوقت الذي تبيَّن فيه نبوغ علماء نجديين خلال القرن الحادي عشر الهجري؛ مثل محمد بن إسماعيل وسليمان ابن علي وعبد الله بن ذهلان، يلاحظ وفيات بعض كبار علماء المذهب الحنبلي خارج نجد، فالحجاوي توفي سنة ٩٦٨هـ/ ١٥٧٨م ومرعي بن يوسف توفي سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م ومنصور البهوتي توفي سنة ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م.

ب - مكانة علماء نجد وعلاقتهم بالآخرين:

يذكر فضيلة الشيخ عبدالله البسام أنه كان يوجد في بلدة أُشَيْقر في وقت واحد أربعون عالماً "كلهم يصلحون للقضاء يوم كان القضاء لا يصل إلى مرتبته إلا فطاحل العلماء وكبارهم"(١). وربما كان في هذه العبارة نوع من المبالغة، لأن فضيلته - وهو خير من تقصَّى أخبار العلماء النجديين في هذه الفترة - لم يترجم لأكثر من أربعين عالماً من أُشَيْقر خلال ثلاثة قرون تقريبا. ومن غير المرجَّح أن تختفي المعلومات عن هؤلاء العلماء خلال الفترة المذكورة بهذه الدرجة. لكن ما توافر لدى الباحثين من أخبار وفتاوى علماء نجد قبل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب يدلُّ على أن قسماً من هؤلاء كانوا في مرتبة علمية جيدة. على أن هذا القسم لا يمثِّل أكثرية بأيِّ حال من الأحوال، ونادراً ما برز من بين هؤلاء من يمكن أن يقال عنه: إنه كان من فطاحل العلماء وكبارهم. ومن بين هؤلاء النادرين الشيخ أحمد بن يحيى بن عَطْوة أشهر علماء بلده في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. كان ابن عَطْوة من مواليد بلدة

(١) عبد الله بن عبد الرحمن البسام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٥.

العُيَيْنة. وبعد فترة من تعلُّمه فيها قرَّر مغادرتها إلى خارج نجد. ويبدو أن سفره كان نتيجة لعدم رؤيته من كان قادراً على إشباع طموحه العلميِّ في وطنه. وقد أصبح نشيطاً في دراسته على كبار علماء الحنابلة في دمشق؛ مثل ابن عبدالهادي والمرداوي والعسكري، وبلغ من نجاحه في دراسته هناك درجة جعلت زميله الفقيه الحنبلي المشهور، موسى الحجاوي، يقرأ عليه ويستفيد منه[١].

وحين عاد ابن عَطْوة إلى نجد التف حوله طلاب العلم، وانتفعوا بمعرفته، حتى أصبح بعضهم؛ مثل أحمد بن مُشرَّف وعثمان بن زيد، من مشاهير علماء المنطقة. ولم يقتصر علمه في نجد على التدريس، وإنما كان مفتياً ومؤلفاً. ومن مؤلفاته **التحفة البديعة والروضة الأنيعة ودرر الفوائد**[٢]، وعلى هذا الأساس فإنه كان أشهر عالم في

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) بينما سمَّى الشيخ عبد الله البسام مؤلفاته: **التحفة في الفقه، الروضة في الفقه، درر الفوائد والعقيان** (ج ١، ص ٢-٢٠٣) يقول المنقور عن الأولين: **التحفة، الروضة**، لكنه يسمِّي الثالث في موضع **عقيان القلائد ودرر الفوائد** (**الفواكه**، ج ١، ص ١٢٦) ويسمِّيه في موضع آخر **درر الفوائد وعقيان القلائد** (**الفواكه** ج ١، ص ١٨٩).

نجد خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

أما القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي فقد شهد امتياز ثلاثة علماء نجديين في ثلاث مدن مختلفة: محمد بن إسماعيل في أُشَيْقر، وسليمان بن علي في العُيَيْنة، وعبدالله بن ذَهلان في الرياض. وقد عبَّر ابن عيسى عن مكانة الشيخ محمد بن إسماعيل بقوله: "له الرئاسة في العلم في نجد"[١]. كما عبَّر عنها سليمان بن علي بقوله: "الشيخ الأمين والشامة البيضاء في العالمين"[٢]. أما درجة سليمان بن علي العلمية فقد وصفها ابن بشر بقوله: "كان علماء نجد يرجعون إليه في كل مشكلة من الفقه وغيره"[٣]. وعبَّر عنها محمد بن فيروز بقوله: "كان عالم نجد في وقته على الإطلاق[٤]. ومكانة ابن ذَهلان العلمية تبدو واضحة فيما نقله عنه تلميذه أحمد المنقور في كتابه **الفواكه العديدة** المذكور سابقا.

---

(١) عبد الله بن عبد الرحمن البسام، المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٨٨.
(٢) المنقور، **الفواكه**، ج ١، ص ٥٠٦.
(٣) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٠.
(٤) عبد الله بن عبد الرحمن البسام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣١١.

وعلى أيٍّ حال، فمن الواضح أن تركيز علماء نجد - قبل الشيخ محمد بن عبدالوهاب - كان في مادة الفقه. وكان إتقان هذه المادة كافياً لإمداد مختلف المدن النجدية بما تحتاج إليه من قضاة. غير أنه يوجد في حالات نادرة من خرج عن هذه القاعدة، واهتمَّ ببعض العلوم الأخرى. ومن هؤلاء عثمان بن قائد المولود في العُيَيْنة، والذي درس في كل من الشام ومصر. وكان من بين مؤلفاته **نجاة الخلف في اعتقاد السلف**[1]. **لكن هذا العالم لم يُتوفَّ في نجد، وإنما توفي في مصر. وربما كان اهتمامه بالعقيدة نتيجة لمناقشاته مع العلماء خارج هذه المنطقة.**

ولم تكن علاقة علماء نجد بغيرهم من علماء الأقطار الأخرى مقصورة على دراسة بعضهم على علماء تلك الأقطار، وإنما كانت هناك اتِّصالات أخرى بين هؤلاء وأولئك. فبعض العلماء النجديين كانوا يحاولون أن يدعموا آراءهم بآراء علماء من خارج منطقتهم ضد مخالفيهم المحلِّيين حول بعض المسائل الفقهية. ومن ذلك مساهمة بعض فقهاء مكة في آرائهم عن الخلاف الذي دار بين علماء

(١) طبعت رسالته في دمشق سنة ١٣٥٠هـ.

نجديين حول وقف السعدوني في العُيَيْنة[١]، ومساهمة مفتي الأحساء الشافعي في رأيه عن الخلاف الذي كان دائراً بين العالم أحمد بن بسام وأحد خصومه النجديين[٢]. ومن أدلَّة الاتصال بين الفريقين، أيضاً، إرسال مرعي بن يوسف إحدى نسختي كتابه المشهور **غاية المنتهى** إلى نجد وقوله في آخرها: "كتبه مرعي بن يوسف .. وهو يقرىء جزيل السلام والرضوان لأخينا في الله خميس بن سليمان، ويقرىء مزيد الفضل والتبجيل للشيخ محمد بن إسماعيل[٣].

(١) أحمد المنقور، **الفواكه**، ج ١، ص ٥١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١٠.

(٣) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٧ - ١٩٨.

ج - القضاء:

مما يتَّصل بالناحية العلمية القضاء. ذلك أن الوصول إلى مرتبته ناتج عن المعرفة بعلوم الشريعة. وكان العلم لدى النجديين في تلك الفترة محصوراً في هذه العلوم، كما كان التركيز منصباً على مادة الفقه، التي كان إتقانها كافياً لتأهيل المرء للقضاء.

ومن الواضح أنه كان هناك اكتفاء ذاتي من القضاة النجديين في أكثر بلدان منطقتهم. والمعلومات التي تحدِّد دخل هؤلاء القضاة وتوضحه غير متوافرة. لكن من الواضح عدم وجود مرتَّبات نقدية لهم. ويبدو أن مصادر الدخل لديهم كانت مختلفة. كانت هناك بعض الأوقاف المحلِّية، التي تذهب منفعتها، أو جزء من منفعتها، للقاضي. وكان بعض القضاة يتعاطون التجارة أو الزراعة بطريقة من الطرق. وكان من بين هؤلاء من يأخذون أجوراً من المتخاصمين مقابل الفصل بينهم؛ وذلك أمر اعتبره الشيخ محمد بن عبدالوهاب رشوة، وكان من بين نقط خلافه مع بعض خصومه[1]. ومن الواضح أن دخل القضاة كان، بصفة

(١) ابن غنَّام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١١٣ و ١٣٣.

عامة، كافياً لإعاشتهم إعاشة طيبة، كما كان كافياً لإتاحة الفرصة أمام أبنائهم ليتفرَّغوا للدراسة، وكان هذا غير متوافر لكثير من الأُسَر النجدية حينذاك.

ولما كان يتحلَّى به أكثر القضاة النجديين في تلك الفترة من عدل وحب للخير كان موقف المجتمع منهم موقف احترام وتقدير. وكانت كلمتهم مسموعة بين أكثرية الناس، كما كانت مساعيهم الطيبة مقبولة لدى الساسة في منازعاتهم مع الآخرين. ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن بشر من سير الشيخ سليمان بن علي مع ابن مُعمَّر إلى بلدة البِيْر، وتعليله ذلك المسير بأنه للإصلاح بين الطرفين[١].

ولكن فئة قليلة من القضاة النجديين حينذاك لم تكن تتحلَّى بما كانت تتحلَّى به الغالبية العظمى منهم. ولذلك أصبحت محلَّ انتقاد اجتماعي لاذع؛ وبخاصة من أشدِّ فئات المجتمع حساسية وهم الشعراء، وكان من المعبِّرين عن ذلك الانتقاد الشاعر حُمَيْدان الشُّويعر، الذي وصفهم بعدم العدل وأخذ الرشوة[٢].

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٢) عبد الله الحاتم، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ٢١٦ و ١٢١.

ومن المسلَّم به أن كلام الشعراء يتَّصف بالمبالغة في كثير من الأحوال، وأنه لا يمكن قبول ما ورد فيه دون حذر وتمحيص. لكن من الثابت أن فريقاً قليلاً من قضاة نجد حينذاك كانوا يجيزون لأنفسهم ما اعتبره آخرون - وفي مقدَّمتهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رشوة، كما ذُكِر سابقا.

ومن المعروف أن القضاء وما يتَّصل به كان متعلِّقاً بحاضرة نجد. أما البادية فلم يكن لهم قضاة شرعيون؛ وإنما كانوا يتحاكمون إلى العُرْف وتقاليد قبائلهم[1].

(١) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، تحقيق أحمد أبو حاكمة، بيروت، ١٩٦٧م، ص ٣٣.

د - الانتماء المذهبي لعلماء نجد:

الوثائق الشرعية، التي كتبها علماء نجديون قبل القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، تدلُّ على أن المذهب الحنبلي كان موجوداً في منطقة نجد حينذاك. وسفر علماء نجديين خلال ذلك القرن إلى الأقطار التي كان يوجد فيها كبار علماء المذهب الحنبلي للأخذ عنهم دليل آخر على انتمائهم إلى هذا المذهب قبل سفرهم من بلادهم. وكان في طليعة العلماء النجديين الذين سافروا لهذا الغرض أحمد بن عَطْوة المذكور سابقاً.

ومن الملاحظ أن جميع علماء نجد، الذين ترجم لهم فضيلة الشيخ عبدالله بن بسام خلال الفترة التي سبقت ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كانوا حنابلة. وإذا أضيف إلى هؤلاء من لم يفرد لهم فضيلته تراجم خاصة - وهم عدد قليل - تأكَّدت الحقائق الآتية:

١- أنه لم يكن هناك عالم نجدي واحد ينتمي إلى غير المذاهب السنية الأربعة المشهورة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي.

٢- أنه لم يكن بين علماء نجد من ينتمي إلى المذهب

الحنفي.

٣- أنه لم ترد أيُّ إشارة إلى عالم نجدي ينتمي إلى المذهب المالكي سوى راشد بن خُنَيْن. لكن هذا العالم كان، على أيِّ حال - متأخراً ومعاصراً للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٤- أن الشيخ حسين بن عثمان بن زيد كان العالم النجدي الوحيد الذي أشارت المصادر إلى أنه ترك المذهب الحنبلي إلى المذهب الشافعي(١).

وانتماء علماء نجد في تلك الفترة إلى المذهب الحنبلي لا يعني أنهم لا يطَّلعون على كتب فقه المذاهب السُّنية الأخرى ويستفيدون منها. وهذا أمر ينطبق على غيرهم ممن ينتمون إلى هذا المذهب، كما أن غيرهم ممن ينتمون إلى المذاهب الأخرى يطَّلعون على الفقه الحنبلي ويستفيدون منه. وربما كان هذا الأمر من بين أسباب استنجاد بعض علماء نجد في خلافاتهم الفقهية المحلِّية بعلماء من خارج منطقتهم ينتمون إلى مذاهب سُنِّية أخرى، كما أشير إليه سابقا.

---

(١) المنقور، الفواكه، ج ١، ص ٢٢٣.

وإذا كانت سيادة المذهب الحنبلي في نجد، خلال تلك الفترة، واضحة جلية فإن الطريقة التي دخل بها هذا المذهب إلى المنطقة يكتنفها نوع من الغموض. من المعروف أن الحنابلة لاقوا ضغوطاً في بعض العواصم الإسلامية الكبيرة، كما حدث لهم في بغداد خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكان من علمائهم من هرب إلى بلدان إسلامية أخرى[1]. ومن المحتمل أن نجداً كانت من بين الأماكن التي لجأ إليها بعض أولئك الهاربين. وبوصولهم إليها بذروا فيها نواة المذهب الحنبلي. ومن المحتمل، أيضاً، أن أحد النجديين، أو فريقاً منهم، درس على عالم من علماء الحنابلة خارج نجد، ثم بدأ يدرِّس هذا المذهب بعد عودته إلى بلاده، فانتشر فيها.

ولم يكن غريباً أن يجد المذهب الحنبلي أرضاً خصبة في البلاد النجدية. فهو أقرب المذاهب السنية الأربعة إلى ظاهر نصوص القرآن والحديث. وهو - بهذه الصفة - يمثِّل البساطة إلى حدٍ ما. والبساطة من الأمور المحبَّبة لدى الفرد

(١) محمد أبو زهرة، أحمد بن حنبل، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ص ص ٣٩٩-٤٠٠.

النجدي، الذي كان حينذاك أقلَّ إخوانه من عرب الجزيرة تأثُّراً بالخارج. والفرد النجدي كان يعجب بمن يصمد في سبيل ما يؤمن به. وربما كان لصمود الحنابلة - كما فعل زعيمهم الإمام أحمد وكما فعل ابن تيمية - أثر في إعجاب النجديين بهم. وبذلك اجتمع عاملان ينسجمان مع نفسية النجديين: طبيعة المذهب الحنبلي، وصمود بعض علمائه. فكان أن ساد هذا المذهب في البلاد النجدية.

هـ - العقيدة والعمل:

المصادر المتوافرة بين أيدي الباحثين غير متَّفقة في وصفها للحالة التي كان عليها النجديون من حيث العقيدة والقيام بأركان الإسلام خلال الفترة التي يتناولها هذا البحث، فالمصادر المؤيِّدة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تعطي صورة قاتمة لتلك الحالة. لكن بعضها يختلف عن البعض الآخر في المدى الذي يصل إليه قتام هذه الصورة. فابن غنَّام يصدر حكماً عاماً على أهل نجد بأنهم كانوا يأتون كل بابٍ من أبواب الشرك، ثم يورد تفصيلات معيَّنة عما كانوا يفعلونه عند قبور بعض الصحابة الذين قُتِلوا أثناء حروب الردة، والموجودة في الجُبَيلة وما حولها، كما يذكر ما كانوا يقومون به عند بعض الأشجار في هذه المنطقة. ويختتم هذه التفصيلات بذكر رجل اسمه تاج كان أهل الخرج يعتقدون فيه الولاية، ويتَّجهون إليه بالنذور والدعاء[1]. وابن بشر يقول في حكمه العام: "إن الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر قد فشا في نجد". ويعطي أمثلة لما كان شائعاً من ذلك الشرك، لكنه لا يذكر أسماء

(١) ابن غنَّام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ٧-٨.

أهداف المشركين باستثناء قُبَّة زيد بن الخطاب، رضي الله عنه، في الجُبَيلة[١] ويتَّفق كلا المؤرخين السابقين في تسمية هذه الفترة بالجاهلية[٢].

أما الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد ذكر اعتقاد بعض الجهال بأناس معيَّنين؛ مثل تاج وشَمْسان وحطَّاب وحسين وإدريس[٣]، كما ذكر عن أحد خصومه من العلماء النجديين بأنه كان يتعاطى الطلاسم[٤]، وأنه كان يوجد متصوِّفة على مذهب ابن عربي وابن الفارض في مِعْكال، التي هي جزء من الرياض حالياً[٥].

ومن ناحية أخرى أشار الشيخ محمد إلى أن أكثرية بعض القبائل في نجد لم تكن تقوم بأركان الإسلام، وأنها كانت تنكر البعث بعد الموت[٦]، كما أشار إلى أن أهل البادية قد كفروا بالكتاب كلِّه وتبرأوا من الدين واستهزأوا بالحضر

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٩ و ٢٢.
(٢) ابن غنَّام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٤ و ج ٢، ص ٣.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩.
(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٢.
(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٧.
(٦) ابن غنَّام، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ١٠٨ و ١٤٤.

الذين يؤمنون بالبعث[١].

لكن بعض المصادر تبرز نجداً موطناً لعلماء أجلَّاء أكثرهم كان يتحلَّى بالورع والصلاح، كما تصوِّر غالبية سكانها من الحضر - على الأقل - متمسِّكة بأحكام الإسلام، منفِّذة لواجباته وسننه[٢]. والأشعار، التي قيلت في تلك الفترة، لا تحتوي، بصفة عامة، على ما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة، أو يتنافى مع أحكام الإسلام العامة. بل إن من تلك الأشعار ما تبرز تمسُّك قائليها بعقيدتهم والتزامهم بإسلامهم، وتوضِّح أن المجتمع الذي عاشوا فيه كان مجتمعاً مستقيماً في أكثر تصرُّفاته[٣].

والمتتبِّع لتاريخ ابن غنَّام يرى بوضوح تحمُّسه لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله. ومعرفة اتِّجاه صاحب المصدر يساعد على تقييم ما أورد من معلومات.

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) يرى الباحث هذا الأمر واضحاً في تواريخ ابن بسام والمنقوري والفاخري وابن عيسى، كما يراه، أيضاً، في كتاب **الفواكه**، للمنقور، وفي سوابق ابن بشر نفسه.

(٣) انظر عبد الله الحاتم، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ص ٨٩ و ٢-١١٣ و ١٣٨.

وفضل دعوة الشيخ محمد أمر لا يمكن إنكاره، لكن ربما كان تحمُّس ابن غنَّام لهذه الدعوة المباركة من الأمور التي دفعته إلى تعميم حكمه على أهل نجد قبل ظهورها ليوضِّح مقدار فضلها.

ومن الملاحظ أن الأمور التي ذكر ابن غنَّام وجودها محصورة في منطقة نجدية معيَّنة، وأنه لم يشر إلى وجود مثل هذه الأمور في المناطق النجدية الأخرى. فهل عدم إشارته دليل على عدم وجودها في تلك المناطق أم هو - على الأقل - دليل على عدم بلوغها الدرجة التي وصلت إليها في منطقة العارض؟ من المعروف أن منطقة الجُبَيلة كانت موضع قبور بعض شهداء الصحابة، رضي الله عنهم. ووجود قبور أمثال هؤلاء قد يكون سبباً لانزلاق بعض الجهال في تقديسها. والانزلاق في مثل هذه الأمور قد يؤدِّي إلى التورُّط في أمور أخرى؛ مثل تقديس الأشجار ونحوها، ومهما يكن من أمر فإنه من الممكن القول بأن تعميم ابن غنَّام من غير المسلَّم به تاريخيا.

وابن بشر - كما هو واضح من تأمُّل تاريخه - كان، أيضاً، من المتحمِّسين لدعوة الشيخ محمد وأنصارها.

وموقف كهذا قد يؤدِّي إلى إصدار أحكام تنقصها الدِّقة. ولو أخذنا كلامه عما حدث إثر انهيار الدولة السعودية الأولى - مثلاً - لرأينا الدليل على ذلك. يقول عن أهل نجد حينذاك: "فتقاتلوا على سنن ما أنزل الله بها من سلطان، وهجر كثير منهم الصلاة وأفطر في شهر رمضان، وجرَّ الرباب وأصوات الغناء في المجالس، وسفت الذواري على المجامع والمدارس، وعمرت المجالس بعد النداء للصلوات، واندرس السؤال عن أصول الإسلام وأنواع العبادات، وظهرت دعوى الجاهلية في كل البلاد، وتنادوا بها على رؤوس الأشهاد"[1].

ومن الواضح عدم دقَّة بعض ما ذكره هنا. وهو إنما أورده بمثل ما أورده به إظهاراً لفضل الدعوة وأنصارها أيام الدولة الدولة السعودية الأولى، وإيضاحاً للدور الكبير الذي قام به الإمام تركي بن عبد الله فيما بعد. لكن ابن بشر - من ناحية أخرى - لم يعمِّم حدوث الشرك عند كافة النجديين قبل ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإنما استعمل لفظ "فشا"، الذي لا يدلُّ على العموم. ومتوقِّع من ابن بشر-

---

(١) ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٧.

مهما كانت مبالغته- عدم تعميم الشرك عند أولئك القوم. ذلك أنه هو الذي ذكر في سوابقه من الأمور عنهم ما يدلُّ على عدم إمكانية ذلك التعميم.

أما بالنسبة لما أورده الشيخ محمد، رحمه الله، فإنه من الواضح أن ما ذكره عن الطلاسم خاص بأحد مناوئيه. وقد نص المنقور في **الفواكه** على أن من علماء نجد من كان لا يكتفي بكراهية الطلاسم، وإنما يحرِّمها مطلقا[(١)]. والمتصوِّفة، الذين أشار الشيخ محمد إلى وجودهم في مِعْكال، لم ترد أسماؤهم من بين علماء نجد.

وعلى أيِّ حال، فإن ما ذكره الشيخ حول بادية نجد حينذاك أمر جدير باهتمام الباحث. وهو يوضح المدى الذي وصل إليه جهل كثير من سكان نجد بأمور الدين وعدم ممارستهم لواجباته.

ومن المقارنة بين المصادر المختلفة يبدو أن الحالة الدينية التي كانت سائدة في نجد حينذاك لم تكن بالصورة التي أظهرتها بها بعض المصادر المؤيِّدة لدعوة الشيخ

---

(١) المنقور، **الفواكه**، ج ١، ص ١٥٠، هامش ١

محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية. لكن يتَّضح جلياً أنها كانت غير متَّفقة مع قول من قال عن أهل المنطقة في تلك الفترة: إنهم كانوا قد خلعوا ربقة الإسلام والدين(١). بل إنها كانت بعيدة عن الادِّعاء القائل بأن كل أثر للإسلام كان قد اختفى من نجد، وأن قراءة القرآن والصلاة والزكاة والحج كلها أمور قد نسيت من قِبَل سكانها(٢) على أن تلك الحالة - من ناحية أخرى - لم تكن مستقيمة كما قد يستنتج من المصادر الشعرية. لقد كان هناك جهلة يمارسون أعمالاً شركية، لكن عدد هؤلاء كان، فيما يظهر، قليلاً إذا قورن بمجموع السكان. وكان هناك كثير من البادية، الذين لا يقومون بأركان الإسلام نتيجة جهلهم بها. وكان موقف علماء المنطقة من هذا الوضع سلبياً على العموم. لكن كان هناك ملتزمون بأحكام الشريعة، وقائمون بأركان الدين الإسلامي وما يأمر به الدين من واجبات وسنن.

وعلى أيِّ حال، فإن من الواضح أن منطقة نجد كانت في

---

(١) انظر - مثلاً - **علماء الدعوة**، لعبدالرحمن آل الشيخ، القاهرة ١٣٨٦هـ، ص ١٢.

(٢) انظر بالجريف؛ وترجمة عنوان كتابه **رحلة عبر وسط وشرق بلاد العرب**، لندن، ١٨٦٥م، ج ٢، ص ٣٧٠.

حاجة إلى حركة إصلاحية توضح للجهال ما كان خافياً عليهم، وتقضي على كل ما من شأنه أن يخلَّ بعقائد الناس، وتلزم من لم يكونوا يؤدُّون أركان الإسلام على أدائها.

وكانت نجد، فيما يبدو، مكاناً مناسباً لنجاح مثل الحركة المذكورة. فالصوفية لم تكن ذات جذور فيها، كما هو الوضع بالنسبة لكثير من الأقطار الإسلامية في ذلك الزمن. وكانت خالية من المذاهب غير السُّنية. وكثير من البادية لم تكن لديهم آراء عن الدين، ولذلك كان من المحتمل أن لا تكون مجابهتهم صلبة لأيِّ دعوة دينية؛ وبخاصة إذا كان الجهاد من أهدافها، والقتال سبيلاً من سبل نشرها.

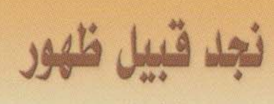
ومن ناحية أخرى، كانت نجد في حاجة إلى حركة سياسية تجمع شتات إماراتها وقبائلها تحت راية واحدة ليسود الأمن والاستقرار فيها. وكانت، أيضاً، أرضاً قابلة لنجاح أيِّ حركة من هذا النوع. فقد كانت بعيدة عن متناول أيِّ سلطة مركزية قوية. وكان بإمكان أيِّ حركة أن تحرز نجاحاً أولياً، على الأقل، دون أن تلفت إليها الأنظار الخارجية. وكون إماراتها وقبائلها مختلفة قد يكون من بين عوامل النجاح لتلك الحركة. فعندما يفشل قائدها في مكان

معيَّن فإن فرصة نجاحه في مكان آخر غير بعيد عنه أمر كبير الاحتمال. فخلاف صاحب المكان الثاني مع صاحب المكان الأول قد يدفعه إلى الترحيب بمن رفضه. وما حدث لدعوة الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ، يعطي الدليل على ذلك.

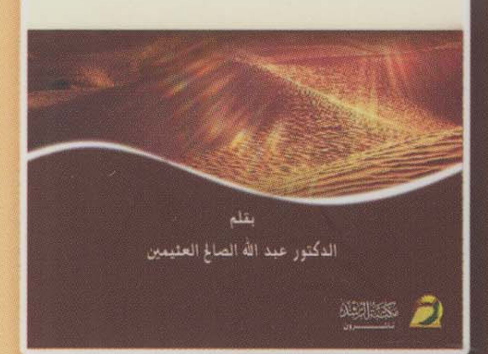


فهرس المحتويات





الشيخ
محمد بن عبد الوهاب



بقلم
الدكتور عبد الله الصالح العثيمين





